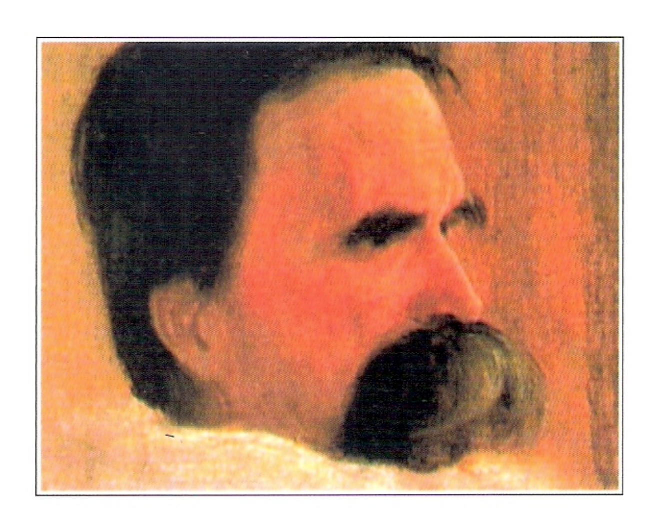
فريدريش نيتشه

نقيض المسيـح



ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

فريدريش نيتشه: **نقيض المسيح**

فريدريش نيتشه

نقيض المسيح

مقال اللعنة على المسيحية

ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

ولد **فريدريش نيتشه** (١٨٤٤–١٩٠٠) في لوتسن وتوفي بمدينة فايمار بألمانيا. فيلسوف ألماني. من أعماله: **هكذا تكلّم زرادشت** (١٨٨٣–١٨٨٥)، **ماوراء الخير والشر** (١٨٨٦)، **المعرفة المرحة** (١٨٨٢)، **قضية فاغنر** (١٨٨٨).

ولد **علي مصباح** عام ١٩٥٣ بتونس. روائي ومترجم تونسي يقيم ببرلين. صدر له عن منشورات الجمل: **بيتر سلوتردايك: «الإنجيل» الخامس لنيتشه** (ترجمة) ٢٠٠٢؛ **فريدريش نيتشه: هذا هو الإنسان** (ترجمة) ٢٠٠٣؛ **فريدريش نيتشه: هكذا تكلم زرادشت** (ترجمة) ٢٠٠٧؛ **فريدريش نيتشه: غسق الأوثان** (ترجمة) ٢٠١٠.

فريدريش نيتشه: **نقيض المسيح**، ترجمة علي مصباح، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Friedrich Nietzche: *Der Antichrist*, 1888

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

كلمة عن هذه الترجمة

هناك بعض الالتباسات التي أحاطت ومازالت تحيط بهذا الكتاب، وبعض إشكالات تعترض الترجمة وبصفة خاصة في ما يتعلق بإيجاد الصيغة المناسبة للعنوان، هي التي سأعرضها هنا على القارئ محاولا أن أوضح ما جعلني أقع على اختيار هذا العنوان دون غيره، دون نية في كتابة مقدمة بالمعنى المعروف: أي كمحاولة في الشرح والتحليل والتعليق. فهذا الكتاب لا يحتاج في اعتقادي إلى مثل هذه المقدمات - من المترجم على الأقل. فهو كما يقدم نفسه منذ جملته الأولى «كتاب لقلة من الناس»، وهذه القلة بمستطاعها في رأيي، أن تلجه دون وساطات، -عدا طبعا عمل المحللين المختصين والأكاديميين والباحثين في مجال الفلسفة النيتشوية. وهو أمر يتجاوز مهمتي وكفاءاتي.

*

هناك أولا التباس مفتعل حول منشأ الكتاب وموقعه من مجمل العمل الفلسفي لنيتشه. البعض اعتبره مؤلفا ثانويا موسوما بنبرة سجالية وباندفاع عدواني مشط ضد المسيحية. بينما يرى فيه

بعض الدارسين والمدققين النيتشويين العمل الأكثر أهمية وخطورة إلى جانب مؤلفه الشهير «هكذا تكلم زرادشت».

الذين اعتبروه عملا أقل أهمية، ومن بينهم هايدغر الذي ما كف يأسف لتخلي نيتشه عن مشروع «إرادة القوة»، رأوا فيه مولودا شبيها بطِرْح، أو إجهاضا للمشروع الفلسفي الأساسي لنيتشه وهو كتاب «إرادة القوة» المتخلّى عنه.

لكنّ من يقرأ هذا الكتاب بعلاقة بشقيقه، أو توأمه «غسق الأوثان» سيدرك الأهمية الكبرى التي بدت لنيتشه من وراء تأليفه، والتي لم يغفل عن إدراكها القراء المتابعون بانتباه لمسار الفكر النيتشوي.

*

بعد الانتهاء من «هكذا تكلم زرادشت» راح نيتشه يجمع شذرات وملاحظات وتعليقات ومقتطعات من قراءاته مهيئا لتأليف ما كان يريد أن يكون مؤلفه الأكبر الذي سيحمل عنوان «إرادة القوة». ربما كان نيتشه يطمح، كما يؤكد ذلك هايدغر إلى تأليف كتاب فلسفي جامع يرتب وينسق وينظّم ما جاء متفرقا بين بقية مؤلفاته. «أثره الفلسفي الأساسي» حسب عبارة هايدغر. لكنه يتراجع عن ذلك في أواخر شهر جويلية ١٨٨٨ ويقرر استعمال مسوداته في مؤلف آخر سيحمل عنوان «قلب كل القيم» كان من المفترض أن يأتي في أربعة كتب أولها «نقيض المسيح». ذلك هو ما سيثير أسف هايدغر في ما بعد، بل ولومه أيضا، معللا تراجع نيتشه عما سماه (أي هايدغر) مشروعه الفلسفي الأساسي بالتسرع وربما بالكسل وضيق الوقت.

يتراجع نيتشه عن مشروع إرادة القوة ويوظف جل مسوداته في كتابين سيؤلفهما في نفس الفترة وهما «غسق الأوثان» و«نقيض المسيح». في أواخر شهر جويلية ١٨٨٨ يقرر نيتشه التخلّي عن مشروع «إرادة القوة» معلنا عن شروعه في تأليف كتاب آخر هو «قلب كل القيم»، أو «إعادة تقييم كل القيم»، إذا ما أردنا ترجمة شبه حرفية. وفي ظرف وجيز (بعد حوالي شهرين) كان قد أنهى تحرير «نقيض المسيح»، وعندها تراءى له أنه قد أنهى في الوقت نفسه مجمل مشروع «قلب كل القيم»، ونجد في أرشيف مسوداته أنه يصرح في رسالة إلى غيورغ براندس بأن نقيض المسيح لوحده يمثل مجمل «قلب كل القيم»-أو «إعادة تقييم كل القيم»-. ومنذ ذلك اليوم غدا نيتشه يتكلم في كل رسائله عن «نقيض المسيح» كمنتهى مجمل فلسفته، ويؤكد بأنه مع هذا الكتاب قد اتضح له شخصيا اكتمال عمله الفلسفي بكليته («إنه فصل الحصاد» يقول في رسالة ١٨ أكتوبر ١٨٨٨ إلى فرانز أوفرباك)، وأنه منذ تلك اللحظة قد غدا «على قناعة تامة بأن كل شيء قد كلل بالنجاح؛ كل شيء، منذ البداية كلٌّ واحد، ويريد الوحدة.» (رسالة إلى كوزيليتس بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٨٨٨).

غير أن ورثة نيتشه والقائمين على «أرشيف نيتشه» آنذاك قد تغافلوا عن تراجعه عن ذلك المشروع، وهو ما عبر عنه بصريح العبارة خاصة في إحدى رسائله إلى أمه حيث يقول بوضوح لا يقبل الجدال: «لقد وقع كتاب چإرادة القوةچ في الماء». ظل أولئك «الورثة» متمسكين بمشروع «إرادة القوة»، وأصروا على تلفيق كتاب يحمل هذا العنوان من فوضى مسودات وشذرات تم

استعمالها في كل من «غسق الأوثان» و«نقيض المسيح»، بل وبلغ بهم الأمر أن استعملوا حتى جذاذات ومقتطعات كان نيتشه يجمعها من قراءاته، حتى أن ١٢ شذرة من نسخة ١٩١١ (لما سمي بـ«إرادة القوة») لم تكن في الواقع سوى مقتطعات من كتاب «ديانتي» لتولستوي، كما يفيدنا بذلك المحقق الإيطالي مونتيناري في كتاب بعنوان «إرادة القوة لا وجود له»[1] ثم انتهوا إلى إصدار نسخة «مهذبة» ومحرّفة لكتاب «نقيض المسيح» حاولوا أن يقلّموا أظافرها ويشذبوا ما كانوا يعتبرونه نتوءات مؤذية، بدء من العنوان الفرعي الذي كان في الأصل: (Fluch gegen das Christentum)، أو ما معناه «لعنات ضد المسيحية»، ليصبح «محاولة في نقد المسيحية»، وهو العنوان الذي سيجده قارئ الفرنسية في نسخة ترجمة هنري ألبرت الذي لم يتورع بدوره في التدخل تحويرا و«تهذيبا» وتحريفا في العديد من المواقع من الكتاب، وصولا إلى حذف طال فقرتين كاملتين من الكتاب (٥٩ و ٦٠): الفقرتان اللتان يقابل فيهما نيتشه بين المسيحية والإسلام ويقدم هذا الأخير كديانة قائمة على القيم الفحولية وعلى غرائز أرستقراطية نبيلة قوامها الاستجابة الإثباتية للحياة.

تراجع نيتشه عن مشروع «إرادة القوة» لفائدة مشروع «قلب كل القيم» (Umwertung alle Werte) - كان خيارا واعيا صادرا عن رؤية فلسفية محددة: فنيتشه ما فتئ يبجّل كتابة الشذرات على

---

(١) 'La volonté de puissance n.existe pas'. Editions de l'Eclat, Paris 1996.

النصوص الفلسفية المهيكلة النسقية: أي تأسيس الأنظمة والأنساق. وقد عبر عن ذلك في العديد من المواقع نذكر منها «غسق الأوثان»؛ الفقرة ٥١ («إن الشذرات، تلك المقولات التي أمثّل فيها المعلّم الأول بين الألمان، هي أشكال للأبدية، ويتمثل طموحي هنا في أن أقول في عشر جمل ما يقوله واحد آخر في كتاب–ما لا يقوله أي واحد آخر في كتاب.»)؛ وفي «المسافر وظله» («لتحفظني السماء من كتابة المطارحات ذات النسيج الممطط»)، وكذلك في زرادشت؛ فصل «عن الشعراء».

وفقا لرؤيته التفكيكية يتخيّر نيتشه إذن مشروع «القلب» و«النقض»؛ أي مشروع التفكيك على مشروع تأليف كتاب يمكن أن يتحول بدوره إلى تأسيس – إلى نظام: «إرادة القوة». وعندما يعلن في رسالة إلى أمه عن أن «إرادة القوة قد وقع في الماء»، ماذا يعني بالنهاية بوقوع المشروع في الماء؟ أي ما الذي أوقعه في الماء؟

هل سقط من لدن ذاته؟ أم أن نيتشه هو الذي أسقطه: ألغاه؟

أن يكون قد سقط من لدن ذاته، أو أن يكون نيتشه هو الذي أسقطه فإن ذلك سيّان في حقيقة الأمر.

لا أثر لندم ما في هذه الكلمات المقتضبة، ولا أية نبرة توحي بشيء من الخيبة أو من المرارة التي يشعر بها امرؤ لدى إخفاق مشروع يعزّ عليه. بل مجرد نبأ شبيه إلى حد كبير بقرار، أو إعلان حكم لا يقبل بالتراجع: هذا هو قراري وحكمي النهائي.

*

«نقيض المسيح» (Der Antichrist) هو إذن ما كان منتظرا أن يكون الجزء الأول من مؤلف «قلب كل القيم»، في الوقت نفسه وبصفة موازية تقريبا كان نيتشه يعمل على تحرير «غسق الأوثان» الذي نشأ بدوره من المسودات التي كان يعدها للمشروع الذي «وقع في الماء»؛ أي على أنقاضه.

Antichrist؛ ماذا يعني نيتشه بهذه العبارة؟ أو ماذا يعني بهذه الاستعارة من التراث المسيحي؟ خاصة وقد اختار استعمال عبارة ليست من صميم اللغة الألمانية التي كان بإمكانها أن تعبر بصيغ أخرى مثل: Der Widder-Christ (وهي العبارة التي تستعملها ترجمة مارتن لوثر، وهي المستعملة من قبل كل اللاهوتيين والعلماء في عصر نيتشه)، أو Der Un-Christ، فالجزيء Anti ليس من صميم اللغة الألمانية، بل يعود إلى اليونانية في الأصل، وفي كتاب «هذا هو الإنسان» نجد نيتشه يقول عن نفسه: «فأنا في اللغة اليونانية وليس في اللغة اليونانية فقط، نقيض المسيح.»

سيدخل هذا الإسم شيئا من البلبلة على عقول المترجمين إلى بعض اللغات الأجنبية، وخاصة على المترجمين الفرنسيين، الذين رأوا، لسبب أو لآخر، أن يستعملوا عبارة Antéchrist، والجزيء anté يفيد القبليّة، أي ما يجيء قبل شيء ما، في حين تفيد anti المستقاة من الإغريقية فكرة المناقض والضد، والنقيض؛ أي النفي وبخاصة المناقضة، وكذلك فكرة الوقوف موقف الخصم. هذا ما يقره أيضا الباحث الفرنسي يانيك

سولاديه في مقالة له بعنوان «القلب ضد إرادة القوة»[٢] مناقضا بذلك ما ذهب إليه جل المترجمين الفرنسيين في استعمالهم لعبارة Antéchrist التي تعني «الذي يأتي قبل المسيح»، أو الذي سيدعي أنه المسيح قبل مجيء المسيح الحقيقي. وهذا هو ما قاد العديد من المترجمين العرب (عن الفرنسية) إلى استعمال عبارة «المسيح الدجّال».

يستند سولاديه في اختياره لتبني العبارة كما جاءت في النص الأصلي لنيتشه على رأي وتأويل واضح للقديس أغسطينوس الذي يكتب في «التعليقات»[٣] عن الرسالة الأولى ليوحنا الرسول: «في اللاتينية، تعني كلمة antichrist من هو ضدٌّ للمسيح؛ فالأنتيكريست لا تعني إذن كما اعتقد البعض «ذلك الذي كان سيأتي قبل (ante) المسيح»، أو بعبارة أخرى ذلك الذي سيأتي بعده المسيح؛ فالإتيمولوجيا (أصل الكلمات) ورسم العبارة تدلان معا بأن ليس هذا هو المعنى الصحيح؛ كلاّ، إن الأنتيكريست هو ضدُّ المسيح.»

يعني هذا أنه النقيض، والمناقض: الذي يضع نفسه موضع النقيض، وهو الضدُّ. والقديس أغسطينوس لا يفعل سوى

---

(٢) Yannik Souladié; - "L'Inversion contra la volonté de puissance."

- "Christ et Antichrist ; figures de l'inversion des valeurs chez Nietzsche", in revue 'le Champs du Midrash'. www.nouveaux savoirs.com/champ-du-mirdash, Chap I.

(٣) Saint Augustin, "Commentaires", Traduction et notes par P. Agaesse, Paris 1961.

استعمال العبارة نفسها التي يستعملها يوحنا الرسول في رسالته الأولى، موضوع تعليقاته، حيث نقرأ في الإصحاح الثاني/١٨: «وكما سمعتم أن ضدّ المسيح يأتي...»

*

لقد ترددتُ بدوري طويلا في اختيار العنوان المناسب في اللغة العربية. وكنت قد وقعت من قبل (في ترجمة سابقة) في الخطأ السائد لدى جل المترجمين العرب، والمتأتي من تبعية الترجمة العربية للترجمات الفرنسية التي لا تمتاز دوما بالدقة، ناهيك عن الأمانة. ووجدتني وأنا أقرأ هذا الكتاب وأعيد قراءته، ثم وأنا أشرع في ترجمته أطرح على نفسي أسئلة عديدة بشأن العنوان. ووجدت أن نيتشه يسمي نفسه «الأنتيكريست» كما ورد في ثلاث رسائل إلى المقربين من أصدقائه آنذاك:

- إلى مالفيدا فون مايزنبوغ بتاريخ ٣ أبريل ١٨٨٣: «أتريدين إسما جديدا لي؟ لغة الكنيسة لها ذلك الإسم: إنني «الأنتيكريست».»

- إلى بيتر غاست: «إما المسيح، وإما زرادشت (aut Christus, aut Zarathustra)، أو بلغة أوضح يتعلق الأمر بذلك «الأنتيكريست» الموعود به منذ زمن طويل.»

- إلى فرانز أوفرباك (٢٦ أغسطس ١٨٨٣): «إن ما يسرني هو أن هذا القارئ الأول قد حدس الأمر المقصود هنا، ألا وهو «الأنتيكريست» الموعود به منذ زمن طويل.»

لا يفوت القارئ أن يلاحظ في الرسالة الثانية الموجهة إلى

بيتر غاست تلك المقابلة الصارمة بين زرادشت والمسيح: «إما، و إما». لا توسط ولا مهادنة. وإذا ما اعتبرنا أن زرادشت بمعنى ما هو صوت ديونيزوس، فإن ذلك سيحيلنا على الجملة الأخيرة من كتاب «هذا هو الإنسان»، والتي تختم ذلك الكتاب في الوقت الذي تختم فيه مجمل كتابات نيتشه بما يشبه ضربة السيف القاطعة: «أفهمتموني؟ ديونيزوس ضدَّ المصلوب!»

«إما زرادشت، وإما المسيح»، «ديونيزوس ضدَّ المصلوب». والمصلوب بطبيعة الحال ليس يسوع الناصري في نظر نيتشه، بل المسيح الذي هو صنيعة بولس والمسيحيين الأوائل، ثم الكنيسة في ما بعد. لقد غدا نيتشه ومنذ سنة ١٨٨٣ بالتحديد يضع تفرقة صارمة بين شخصية يسوع التاريخية وشخصية المسيح الأسطورية. ولدى قراءتنا لكتاب «الأنتيكريست»(*) سنجد أن نيتشه يتوجه بنقده إلى المسيحية وإلى مؤسسها الرئيسي بولس أكثر مما يتوجه بنقد ليسوع الناصري الفتى البريء «الأبله» (على غرار أبله دويستويفسكي) والغر المتحمس (على غرار «المراهق» لدويستويفسكي مرة أخرى). شاب نقيّ باطني، نصف أبله ونصف قدّيس بوذي (قدّيس بوذي في محيط يهودي سيوضح نيتشه). روحاني لا علاقة له بما يدور من حوله سوى ما يبديه من نفور من ذلك المحيط ونمط عيشه

(*) سيلاحظ القارئ أنني سأظل أستعمل عبارة «الأنتيكريست» حتى حين يتم تقديم التوضيحات التي سأبرر بها اختياري للعنوان العربي «نقيض المسيح».

وتفكيره ومعتقداته. مراهق حالم، غير ناضج (سيؤكد نيتشه في «هذا هو الإنسان» بأن ذلك الفتى الغر لو كتب له أن يعيش كي يبلغ سن النضج لتراجع عن كل اقواله وأفعاله الطائشة السابقة)، يجد نفسه في تنافر مع العالم المحيط. ليس بصاحب معتقد للآخرين ولا مخلّصا للبشرية. ونحن في الحقيقة لن نعثر على وثيقة جدية تثبت بأن يسوع كان يكرز بالدعوة إلى ديانة جديدة، ولا هو كان يدعو إلى تأسيس كنيسة، بل إن سيرته كلها كانت مجموعة من المواعظ الروحانية التي غالبا ما كانت تعبر عن نفسها ضمن سلوكات مغايرة للسائد وممارسة للحياة على نحو روحاني متبتل. ليس صاحب معتقد للآخرين إذن، ولا هو بمخلّص للآخرين، ولا يعد بملكوت الربّ، هكذا يؤكد نيتشه في الفقرة ٣٢ من هذا الكتاب، «بل هو المعتقد؛ معتقده الخاص. وهو نفسه الخلاص-خلاص نفسه، وهو نفسه مملكة الله الخاصة به». إيمانه ليس إيمانا مكتسبا، ولا هو منتزع بحدّ السيف: لا سيف له، أو «لم يجئ بالسيف»، بعبارة نيتشه، على عكس ما يرد في إنجيل متى (١٠/ ٣٤): «ما جئت لألقي سلاما بل سيفًا».

لكأنه هو (يسوع) «نقيض المسيح»، مسيح بولس والكنيسة المسيحية. وإذا ما قلبنا المعادلة بقلب الأدوار، فإننا نجد نيتشه يؤكد بصريح العبارة بأن بولس هو نقيض الإنجيل، ونقيض «رسالة البشرى» التي كان يكرز بها يسوع الناصري. نيتشه، وهو يستفيد من قراءته لتولستوي («ديانتي») وإرنست رينان («حياة يسوع»)، يضع بولس ومن بعده المسيحية في موضع المناقض

ليسوع (الفقرات ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩): بولس هو «المسيح الدجال».

*

لكنّ نيتشه سيأخذ عن يسوع الفتى الغرّ «الأبله» حمل الوقوف موقف النقيض للمسيح، بل وسيخلصنا نحن أيضا من الإغراء الذي ستمارسه علينا فكرة أنّ «الأنتيكريست» ليس شخصا آخر بالنهاية غير يسوع الناصري:

أنا هو «الأنتيكريست»، يعلن نيتشه.

ديونيزوس، زرادشت، نيتشه: ثلاثة أسماء لمسمى واحد هو «الضدُّ» والنقيض والمشروع الفلسفي البديل للمسيحية.

*

هناك من المترجمين العرب من ذهب إلى ترجمة «الأنتيكريست» بـ«عدوّ المسيح». وهي إمكانية مغرية أيضا بحكم ما في العداوة من مناهضة ومناقضة. أو لنقل ما في الضدية من معاداة. فالضد عدوّ بطبيعة الحال. لكن هل كل عدوّ ضدٌّ؟

لقد بدت لي عبارة «عدو المسيح» أكثر عمومية، لأن أعداءه يمكن أن يكونوا من كل صنف، بما في ذلك الذين لا يطرحون أنفسهم لا ضدا ولا نقيضا أو بديلا. بينما في الضد والنقيض هناك أيضا طابع المنافسة، وهناك أيضا نية التعويض: أي أن يطرح الضد والنقيض نفسه بديلا عن المسيح. والمراد من «الأنتيكريست» هو هذا المعنى بالذات: «إما، وإما». وقد يكون الضد أيضا مسيحا مزيّفا بدوره. من هنا ذلك الإغراء الذي

مورس على العديد من المترجمين العرب والذي دفع بهم إلى استعمال عبارة «المسيح الدجّال». وهذا التعريف لا يمثل في الحقيقة سوى واحد من المعاني الأساسية الثلاثة التي عرفها تطور المفهوم والتبدلات التي طرأت عليه خلال المراحل المتعددة من تاريخ الفكر الكنسي: إنه «الكاذب»، كما يرد في رسالة يوحنا الأولى ٢/ ٢٢ («ومن هو الكاذب إن لم يكن ذلك الذي ينفي أن يسوع هو المسيح؟»)، وهو «المضلل» الذي رسخته الرؤية البولسية أكثر من غيرها(الرسالتان إلى أهل سالونيكي، وبصفة خاصة الرسالة الثانية). وهو «الضدّ» الذي يرد في رسالة يوحنا الرسول في صيغتين مختلفتين: في المفرد وفي الجمع في نفس الموضع تقريبا: «وكما سمعتم أن ضد المسيح يأتي قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون» . إنه روح صار جسدا، كما ينبئ بذلك يوحنا. بمعنى أنه الشيطان متجسدا.

والمفاد من التفرقة بين الضد الفرد والأضداد الجمع هو أن يوحنا، مثله مثل بولس، كان منشغلا بظهور الطوائف والنحل الكثيرة والمجموعات المسيحية التي تخالف بولس الرأي وبخاصة بشأن الأبوّة والتثليث وقد اعتبرتهم الكنيسة(بولس، يوحنا) مارقين وضالين وكذَبة مضلِّلين: («إنه ضدُّ المسيح الذي ينفي الأب والإبن»، يقول يوحنا في رسالته المذكورة آنفا).

وانطلاقا من فكرة تجسد الشيطان في صورة الأضداد يؤكد بوسّيه (Bousset): «في البدء لم يكن «ضدُّ المسيح» شيئا آخر غير الشيطان متجسّدا»، ثم «لم يعد «الأنتيكريست» البولسي في الأساس طاغية مستندا على الغيبيات، بل مسيحا مزيّفا، أي نبيا

كاذبا ومضللا للعقول.»[٤] أي بمعنى أخر أن صيغة الجمع هذه تحيلنا على مفهوم يجمع في تعدده شتاتا من كل صنف من المناهضة للكنيسة: ظاهرات منفردة لتنوع أشكال الضدية. يبقى «الضد» المفرد المعلن عن ظهوره كفاجعة غيبية صورة نمطية- مفهوما عاما: مفهوم الضدية في شموليته وكلّيته، أو الضدية في كليتها وشموليّة ضدّيتها: أي نقيض بالكلّ، وبديل بالكلّ. شيء شبيه بصورة مجرّدة تحتوي في شموليتها مجمل عناصر الضديّة المتفرّقة والمتنوعة: الصورة النمطية للضديّة.

ذلك بالتأكيد هو ما يريد أن يكونه نيتشه: لا ضدّا من بين الأضداد الكثيرين، بل «الضدُّ»، ولا مناقَضة من بين المناقَضات، بل **النقيض**. من هنا يأتي عنوان الكتاب بصيغة التعريف: Der Antichrist، في حين كانت اللغة الألمانية ستسمح له دون أي إشكال باستعمال العبارة في صيغة النكرة: Antichrist

ليس مجرد عدوّ من بين الأعداء الكثيرين والمتنوعين للمسيح من الكهنة اليهود إلى الحكام الرومانيين، مرورا بالفرّيسيين والكتبة. (وهناك من يذهب أيضا إلى تأويل مفاده أن قياصرة روما من أمثال نيرو وداماتياس هم المقصودون بهؤلاء الأضداد الكثر الذين «سيتربعون على العرش وينصبون أنفسهم

---

(٤) Bousset; Article publié dans ‘Encyclopedia of religions and ethics’

يورده يانيك سولاديه في مقالته المذكورة أعلاه.

يمكن الرجوع أيضا إلى ما كتبه ميرسيا إيلياد في مقالة له تحت عنوان:
‘l’Antichrist’, in Encyclopedia of Religions.

مكان الربّ»). -بل هو الخصم و «النقيض» بالكل، والعوض والبديل.

ألسنا بصدد كتاب يضع نفسه جزء أولا من عمل أكبر كان يخطط له نيتشه آنذاك وهو «قلب كل القيم»، أو «إعادة تقييم كل القيم»؟

والذي يضع نصب عينيه مثل هذا البرنامج: قلب القيم، وإعادة تقييم كل القيم، إنما يطمح إلى النقض الكلي، إلى هدم كلي وإعادة صياغة كليّة. أي أنه يطرح نفسه بديلا، ويطرح فكرته ورؤيته نقيضا وعوضا عن الفكرة والرؤية المسيحية.

هل من حاجة لنا بعد كل هذا أن نكلّف أنفسنا عناء السعي إلى دحض فكرة أن يكون المقصود هنا هو المسيح الدجّال؟

أن يسمي نيتشه نفسه بـ«الدجال»! وهو يضع الأسس لمشروع فكري يطمح إلى أن يكون النقيض والبديل، ومستقبل الإنسانية!

وهل يحق لنا، ونحن نقرأ بصريح العبارة أنه يسمي نفسه بنفسه «الأنتيكريست»، أن نذهب إلى ما ذهب إليه أغلب المترجمين الفرنسيين من أنه ذلك الذي كان ينبغي أن يأتي قبل المسيح؟

نيتشه «الأنتيكريست» هو **نقيض** المسيح إذن. هو «الضدُّ» الذي يتكلم عنه يوحنا وأغسطينوس. وكان من الممكن لنا تبعا لهذا أن نختار ترجمة العنوان كالآتي: ضدُّ المسيح. كانت الفكرة مغرية، وقد ترددتُ طويلا بينها وبين «نقيض المسيح»، خاصة لورود عبارة «الضد» في رسالة يوحنا، وفي موقعين من «رؤيا يوحنا» (١٣ و١٧)، وفي الإصحاح الثالث عشر من إنجيل

مرقس. لكنني سأدع استعمال عبارة «الضد» لسببين: أولهما إمكانية حصول الالتباس في قراءة وتأول كلمة «ضد» في حالة غياب التشكيل، فيكون هناك خطر أن يقرأ العنوان: «ضدَّ المسيح»، فيصبح المعنى تبعا لذلك أن الكتاب مجرد موقفٍ معارِض، أو مجموعة تهم وانتقادات واعتراضات وليس ضدّا، أي **نقيضا بالكلّ**، وعوضا وبديلا.

وثانيهما أن عبارة الضد لا تفيدنا بما تفيد به عبارة التقيض من أن هذا الذي يضع نفسه موضع النقيض إنما يأتي، لا ليناهض ويناقض فحسب، بل لينقُض أيضا، ويقوّض، وهو ما يستجيب لغرض المشروع النيتشوي المتمثل في «قلب وإعادة تقييم كل القيم».

لا بد أن أتوقف قليلا هنا عند العنوان الثاني، أو الفرعي الذي يلحقه نيتشه بالعنوان الرئيسي، كما هي عادته في أغلب الأحيان. الترجمة العربية الوحيدة التي أعرفها لهذا الكتاب (دار الحوار، اللاذقية) قد أسقطت هذا العنوان الفرعي، كما تفعل الترجمات العربية عادة (هكذا تكلم زرادشت مثلا). لكن لهذا العنوان الفرعي دلالته إذا ما ما أولاه القارئ ما يستحق من اهتمام. عنوان يحمل عبارة اللعنة التي يوجهها نيتشه ضد المسيحية: 'Fluch gegen das Christentum' . ماذا يعني نيتشه بذلك؟

عبارة Fluch تعني في اللغة الألمانية اللعنة. لكنها يمكن أن تعني الشتائم الحادة كذلك، وما شابه ذلك من العبارات الساخطة الراجمة. فهل يكتفي نيتشه بمجرد الشتم والسخط الراجم الحانق على المسيحية؟ أم أنه يختار هنا عن قصد عبارة اللعن،

واللعنات، لا لمجرد إضفاء مزيد من الحدة على مقولاته، بل لدلالة مهمة لها علاقة بطابع العمل الذي هو بصدده من خلال تأليف هذا الكتاب.

كلا، إنه لا يشتم، ولا يحنق ويسخط، بل **يلعن**، ويعلن هذه اللعنة عنوانا ويافطة لكتابه هذا الذي كان من المنتظر أن يكون جزء أولا من قلب كل القيم، ثم انتهى بأن أصبح هو مجمل قلب كل القيم، في نظر كاتبه على الأقل. وهو في رأيي تنبيه أول، أو نكهة أولية يقدمها نيتشه للقارئ، ومذاق أول ينبئ عن روح الكتاب القائم على النقض وقلب كل القيم. فنيتشه، وهو ينقض المسيحية ويناقض المسيح، ويطرح نفسه ضدا ونقيضا، يستمد من ذلك مشروعية انتزاع الحق الذي كان حكرا على المسيحية والكنيسة، ألا وهو حق اللعن.

الضدُّ يقلب المعادلة إذن ويصبح هو اللاعن بعد أن ظل طوال تاريخ المسيحة هو الملعون. بل ويصبح لاعنَ اللاعنِ، وبموجب ذلك تصبح المسيحية التي كانت تحتكر حق اللعن الذي خصت به كل منافسيها ومناهضيها وهراطقتها، هي موضوع اللعنة: الملعونة.

*

نقيض المسيح: ديونيزوس-زرادشت-نيتشه.

وربما يسوع الناصري أيضا. لِم لا؟

المترجم

٢٤ جانفي/ يناير ٢٠١٠

مقدمة[1]

هذا الكتاب لقلة من الناس فقط. وربما لم يولد أحد من هؤلاء القلة بعد. قد يكونوا أيضا من أولئك الذين استطاعوا أن يفهموا زرادشتي؛ وكيف لي أن أخلط بيني وبين أولئك الذين تُهيّأ لهم منذ الآن آذان صاغية؟ بعد غد فقط هو زمني. فمن الناس من لا يولد إلا بعد الممات.

---

(١) يعود هذا النص في الأصل إلى الفقرة الثالثة من المقدمة الأولية لكتاب «غسق الأوثان»، التي كان من المفترض أن تكون بدورها مقدمة لمشروع كتاب «قلب القيم». وهنا الصيغة الأصلية لما كان من المفترض أن يحل محل الفقرة الثالثة المذكورة: «لكن ما لي و الألمان؟ إنني أكتب، وأحيا لأجل قلة من الناس. إنهم في كل مكان، -وهم في غير مكان ما. ولكي تكون للمرء أذن لكلامي، عليه أن يكون أوروبيا جيدا أولا- مع أشياء إضافية أخرى!... وأنا أعرف جيدا أية شروط ينبغي أن تتوفر كي يستطيع المرء أن يفهم كتاباتي-الأدبيات الأكثر جدية من بين ما يوجد من كتابات- وكي يغدو ضروريا أن يفهمها. نزاهة متحولة غريزة وصبوة، تحمر خجلا من تلك الأشياء التي تدعى اليوم أخلاقية. لامبالاة تامة، بل وشراسة تجاه ذلك السؤال عما إذا ما كان البحث عن الحقيقة سيعود بالفائدة على صاحبه، أم بالمتاعب والكوارث. نزوع القوي إلى إيثار أسئلة ما من أحد يمتلك الجرأة على مراودتها اليوم؛ شجاعة على ارتياد *الممنوع*؛ طبع منذور مسبقا للمتاهة. عافية الجريئين/الشجعان التي تتخذ مبدأ لها في

أعرف جيدا أية شروط ينبغي أن تتوفر لكي أُفهم، ولكي يصبح *ضروريا* أن أُفهم. على المرء أن يكون صادقا حد القسوة في ما يتعلق بالأمور الفكرية، كي يستطيع أن يتحمل جديتي واندفاعي. على المرء أن يكون ذا دربة على الحياة فوق الجبال، -وعلى النظر من *فوق* إلى الهراء البائس عن السياسة وأنانية الشعوب. أن يكون قد غدا لامباليا، وأن لا يسأل أبدا إن كانت الحقيقة ذات فائدة، أو إن كانت ستتحول إلى كارثة. . . نزوع القوي إلى إيثار أسئلة ما من أحد يمتلك الجرأة على مراودتها اليوم؛ شجاعة على ارتياد *الممنوع*؛ طبع منذور مسبقا للمتاهة. خبرة محصّلة من صلب شتى ضروب الوحدة. أذنان جديدتان لموسيقى جديدة. عينان جديدتان للأشياء الأكثر بعدا.

مقولة: *increscunnt animi,virescit volnere virtus (الشجاعة تنمو، والفضيلة تتدعم من خلال الجراح)*(*). خبرة محصّلة من صلب شتى ضروب الوحدة. أذنان جديدتان لموسيقى جديدة. عينان جديدتان للأشياء الأكثر بعدا. وعي جديد بحقائق ظلت خرساء إلى حد اليوم. وإرادة سلوك اقتصادي من نمط راق: أن يصون المرء قواه *وحماسه*. . . احترام النفس؛ حب المرء لنفسه، والحرية المطلقة تجاه النفس. . . مرح المتعوّد على الحرب والانتصار، -والذي يعرف *الموت أيضا*! . ./ حسنا! هؤلاء هم قرائي، قرائي الحقيقيون، قرائي الضروريون: ما الذي يهمني في البقية؟- البقية ليست سوى الإنسانية. وعلى المرء أن يكون متفوقا على الإنسانية قوةً، وسموا في النفس؛- بواسطة الاحتقار. . ./ سيلس ماريا، أنغادين العليا - ٣ سبتمبر ١٨٨٨.

(*) أنظر الفرق بين هذه المقولة اللاتينية والأخرى التي يوردها - أو أنه قد عوضها بها في النسخة النهائية لكتاب «غسق الأوثان»: (*increscunt animi,virescit volnere virtus*- الجرح يحفّز ويستنهض الشجاعة).

وعي جديد بحقائق ظلت خرساء إلى حد اليوم. وإرادة سلوك اقتصادي من نمط راق: أن يصون المرء قواه وحماسه... احترام النفس؛ حب المرء لنفسه، والحرية المطلقة تجاه النفس...

بلى! هؤلاء فقط هم قرائي، قرائي الحقيقيون، قرائي المنذورون مسبقا لي: ما الذي يهمني في البقية إذن؟- البقية ليست سوى الإنسانية. وعلى المرء أن يكون متفوقا على الإنسانية قوةً، وسموا في النفس؛- بواسطة الاحتقار...

فريدرش نيتشه

١[2]

لننظر إلى أنفسنا وجها لوجه. نحن سكان الأصقاع الشمالية القصوى، نعرف جيدا كيف نقيم في المناطق المنعزلة. «لا من طرق الماء، ولا من طرق البر ستجد سبيلك إلى شعوب الأصقاع الشمالية القصوى»: ذلك ما كان يعرفه بيندار عنا،[3] ومنذ زمن بعيد. ماوراء الشمال والجليد والموت-حياتنا وسعادتنا... لقد اكتشفنا السعادة، ونحن نعرف الطريق، وقد وجدنا المخرج من متاهة آلاف السنين. ومن تراه قد توفق إلى وجود ذلك المخرج غيرنا؟ الإنسان الحداثي؟ «لا أعرف مدخلا من مخرج؛ أنا كل من لا يعرف مدخلا من مخرج»، يقول الإنسان الحداثي متنهدا... كنا مرضى بهذه الحداثة؛ مرضى بهذا السلام المتعفّن، وبالتنازلات الجبانة، وبمجمل القذارة الفاضلة للـ«نعم» و«لا» الحديثة. ذلك التسامح ورحابة الصدر التي «تغفر» كل شيء، لأنها تفهم كل شيء، إنما هي ريح سموم بالنسبة إلينا.

---

(٢) الفقرات من ١ إلى ٧ قد وردت تحت عنوان «*نحن سكان الأصقاع الشمالية القصوى*» في المسودات التي كان يعدها لمشروع «إرادة القوة» الذي تخلى عنه بالنهاية لصالح كتابي «غسق الأوثان» و«نقيض المسيح». وكانت من المفترض أن تكون مقدمة الكتاب المذكور.

(٣) شاعر إغريقي من القرن السادس قبل الميلاد- «أناسيد للمنتصر».

وإنه لمن الأفضل أن نحيا في الجليد من الحياة في ظل الفضائل الحديثة ورياح جنوبية أخرى!... كنا على قدر كاف من البسالة، كي لا ندّخر لا أنفسنا ولا الآخرين؛ لكننا لم نكن نعرف ما الذي نفعله ببسالتنا. غدونا كئيبين، وقد سمّانا الناس قدريّين. قدرنا كان الامتلاء والتوتر وزخم تراكم *الطاقات*. كنا ظمأى لصواعق وأعمال، وكنا أبعد ما يكون عن سعادة الضعفاء، وعن «الاستسلام»... زوبعة كانت تسكن في هوائنا، والطبيعة التي هي نحن، قد تعتمت؛- لك أنه *لم* يكن *لنا* من *طريق*. أما قاعدة سعادتنا فهي: إجابة بنعم، إجابة بلا، خط مستقيم، وهدف...

٢

أي شيء يُعد حسنا؟ - كل ما ينمّي الشعور بالقوة، وبإرادة القوة، والقوة نفسها داخل الإنسان.

أي شيء يُعد سيئا؟ - كل ما يتأتى من الضعف.

ما هي السعادة؟ - الإحساس بأن القوة في تنامٍ، وأن هناك مقاومة يتم التغلب عليها.

ليس الرضا، بل مزيدا من القوة؛ ولا السلم في كل الأحوال، بل الحرب؛ لا الفضيلة، بل البسالة (فضيلة بأسلوب عصر النهضة، فضيلة خالية من «المورالين»[*]).

(*) بما معناه عنصر المادة الأخلاقية. وقد فضلت الحفاظ على العبارة في صياغتها التي نحتها عليها نيتشه لما تتضمنه من نكهة ساخرة.

لا بد أن يضمحل الضعفاء وذوي التكوينة المعوقة: المبدأ الأول لمحبة الإنسان *لدينا*. وعلينا أن نساعدهم على ذلك أيضا.

أي شيء أكثر ضررا من أية رذيلة؟ الشفقة الفاعلة لخدمة الضعفاء وذوي التكوينة المعوقة: -المسيحية.

٣

إن المشكلة التي أطرحها هنا لا تتعلق بتخليص الإنسانية بضربٍ من تناوب يجري داخل النوع (-فالإنسان *نهاية*-)؛ بل هي: أي نوع إنساني ينبغي أن *نربي*، و ينبغي أن *نريد*، كنموذج للإنسان الأرفع قيمة، والأجدر بالحياة، والأضمن للمستقبل.

هذا النموذج الأرفع قيمة قد حضر العديد من المرات بيننا؛ لكن في شكل صدفة سعيدة، كحالة استثنائية، أما كشيء *مراد* فذلك ما لم يحصل أبدا. بل أكثر من ذلك فهو الذي كان يُخشى وجوده، حتى أنه كان، وظل إلى اليوم معادلا للأمر الفظيع تقريبا؛- ومن منطلق ذلك الخوف أصبح نقيضُه هو النوع المرغوب، وهو الذي تمت تربيته، والذي تُوُفّق إلى *بلوغه*: الحيوان المدجّن، دابة القطيع، الحيوان المريض المسمى إنسانا المريض: المسيح...

٤

لا تمثل الإنسانية تجسيدا لطور نحو الأفضل والأقوى، أو الأرقى، كما يسود الاعتقاد اليوم. فـ«التقدم» مجرد فكرة

حداثية، يعني فكرة خاطئة. وأوروبي اليوم يظل من حيث قيمته أدنى بكثير من أوروبي عصر النهضة؛ والتطور لا يعني بالضرورة صعودا، وارتقاء، وازدياد قوة.

وبمعنى آخر هناك دوما حالات سَبَق فردية ناجحة في مواقع مختلفة من العالم، ومن صلب مختلف الحضارات يتجسد فيها نوع من إنسان أعلى. مثل هذه المصادفات السعيدة المتجسدة في وقائع نجاح عظمى كانت دوما ممكنة، وربما ستظل دوما ممكنة. بل ومن الممكن أيضا أن يكون هناك جيل بأكمله، أو فصيلة، أو شعب يستطيع في ظل ظروف بعينها أن تتجسد فيه مثل هذه *الصدفة السعيدة*.

٥

لا ينبغي أن نزين وجه المسيحية ونلمع سحنتها: لقد خاضت حربا بلا هوادة ضد ذلك النوع الراقي من الإنسان، ونبذت كل الغرائز الأساسية لهذا النوع، ومن تلك الغرائز استنبطت خلاصة الشر والشرير، -الإنسان القوي كنموذج للمعيب المنفّر ولـ«الإنسان الكريه». لقد انحازت المسيحية لكل الضعفاء والوضيعين والفاشلين؛ وجعلت من الاعتراض على غرائز حفظ البقاء الكامنة في الحياة القوية مثالا أعلى لها، وأدخلت الفساد على العقول أيضا، بما في ذلك عقول طبائع قوية، وذلك عندما صورت لهم أرقى قيم العاقلة البشرية على أنها خطايا وضلالات، وتلبيس *غوايات*. والمثال الذي يدعو إلى الرثاء أكثر من أي آخر هو ذلك الفساد الذي طرأ على باسكال، الذي كان يعتقد أن مرد

فساد عقله هي الخطيئة الاصلية، في حين كانت مسيحيته هي التي أدخلت الفساد على عقله!-

٦

مشهد مؤلم وشنيع تجلى لناظري: لقد رفعت الستارة عن *فساد* الإنسانية. لكن هذه العبارة على لساني تظل في منأى عن شبهة واحدة على الأقل: أن تكون متضمنة لتهمة أخلاقية موجهة ضد الإنسان. إنها -وأريد أن أؤكد على هذا الأمر مرة أخرى- *خالية من المورالين*، وذلك إلى درجة أن شعوري بهذا الفساد يكون على أشد حدة بالضبط في تلك المواقع التي ظل الناس إلى حد الآن يتوقون فيها بكل تفان إلى «الفضيلة»، وإلى «القداسة». أفهم الفساد -كما لم يعد يخف عن أحد- بمعنى الانحطاط: إن اعتقادي هو أن كل القيم التي تضع فيها الإنسانية اليوم مجمل أمانيها هي قيم *انحطاط*.

أقول عن حيوان أو نوع أو شخص بأنه منحط عندما يكون قد افتقد غرائزه، وعندما يختار ويبجّل ما هو مضر به. وإن تاريخ «الأحاسيسِ الراقية» و «مُثلِ الإنسانية» - ولعله سيكون عليّ أن أروي هذا التاريخ - بإمكانه أن يمدنا بتوضيح حول *السبب* الذي جعل الإنسان يكون على هذه الدرجة العالية من الفساد. إن الحياة نفسها تعني بالنسبة لي غريزة النمو والديمومة وتراكم الطاقات؛ غريزة *القوة*. وحيثما كان هناك افتقار إلى إرادة القوة، يكون هناك تدهور. واعتقادي هو أن كل القيم العليا للإنسانية مفتقرة إلى هذه الإرادة، وأن قيم التدهور، والقيم

العدمية هي التي تمارس سيادتها تحت أكثر الأسماء قداسة.

٧

تدعى المسيحية ديانة *الشفقة*. إن الشفقة تمثل العنصر النقيض للأحاسيس المنشطة[٤] التي تنمّي طاقات الأحاسيس الحياتية: إن لها فعل العامل الكارب المرهِق. والمرء يخسر كمًّا من الطاقة عندما يشعر بالشفقة. وعن طريق الإشفاق ينمو ويتضاعف تبديد الطاقة التي يكون الألم قد ضخها داخل الحياة. وحتى الألم نفسه يمكنه أن يغدو معديا بحكم الشفقة[٥]؛ ويمكنه في بعض الأحيان أن يتسبب في حصول خسارة عامة في الحياة وفي الطاقة الحيوية، خسارة مجانية مقارنة بالحجم الضئيل للسبب الذي يكمن وراءها (–حالة موت الناصريّ). هذا هو الوجه الأول للمسألة، لكنّ هناك وجها آخر أكثر أهمية. وإذا ما افترضنا أننا سنقيس الشفقة بحسب قيمة ردود الفعل التي تعمل على إثارتها، فإن خطرها المميت سيتجلى على نحو أكثر وضوحا وبيانا. فالشفقة تعيق في المجمل قانون التطور، الذي هو قانون *الانتقاء*. إذ تحفظ ما قد غدا جاهزا للتدهور، وتقف موقف المناصر لمن حكمت عليهم الحياة وقضت بحرمانهم، كما أنها تمنح الحياة نفسَها مظهرا كئيبا ومشبوها من خلال الحشد الهائل من المتشبثين بالحياة من بين الفاشلين من كل

---

(٤) نقرأ في المسودات من دفتر (Mp XVI 4): «. . . للأحاسيس المنشطة التي، مثلها مثل الشجاعة أوالغضب تنمي طاقات المشاعر الحياتية»

(٥) «ليس هناك من شيء أكثر عدوى من الشفقة» نقرأ في Mp XVI 4.

نوع. لقد تجرأ الناس على منح الشفقة إسم الفضيلة (-بينما تُعتبر ضعفا لدى كل أخلاق نبيلة-)؛ بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك، إذ جعلوا منها عين الفضيلة، وأرضية وأساس كل الفضائل،- لكن، لا ينبغي أن يغيب عنا أن ذلك قد تم من وجهة نظر فلسفة عدمية قد نقشت *نفي الحياة* شعارا على يافطتها. ولكَم كان شوبنهاور محقا في رأيه القائل بأن الشفقة تنفي الحياة وتجعل منها شيئا حقيقا *بالنفي*؛-الشفقة هي العدمية على أرض *الممارسة*. ومرة أخرى: إن هذه الغريزة الاكتئابية المكرِبة والمعدية تتعارض وتلك التي تتأسس على حفظ الحياة وإنماء قيمتها. وهي *كمضاعِف* للشقاء و*كحافظ* لكل بؤس تمثل أداة أساسية لرفع وتيرة الانحطاط؛- إن الاشفاق وسيلة إقناع *بالعدم*!... لكن لا يقال هنا «عدم»، بل يقال عوضا عن ذلك «آخرة»؛ أو «إله»، أو «الحياة الحق»، أو النيرفانا، والخلاص، والسعادة. هذه البلاغة البريئة المنحدرة من مملكة الحساسية الأخلاقية-الدينية ستتراءى بسرعة *أقل براءة* بكثير مما تبدو عليه، حالما ندرك *أية* نزعة تلتحف هنا برداء العبارات القدسية: النزعة *المعادية للحياة*. ولقد كان شوبنهاور معاديا للحياة؛ *لذلك* جعل من الشفقة فضيلة... وقد رأى أرسطو كما نعرف في الشفقة حالة مرَضية وخطيرة يتعين على المرء أن يواجهها بعملية تطهير بين الحين والآخر؛ وقد رأى في التراجيديا وسيلة تطهير(٦). كان على الإنسان أن يسعى مدفوعا بغرائزه الحياتية إلى البحث عن

---

(٦) أرسطاطوليس: «بويتيقا» (الشعرية).

وسيلة لمعالجة ذلك الورم المرضي الخطير المتكون من تراكم الشفقة كما يتجسد على أتم صورة لدى شوبنهاور(وفي مجمل الانحطاط الأدبي والفني أيضا، للأسف الشديد، من بترسبورغ حتى باريس، ومن تولستوي[٧] حتى فاغنر) وإحكام المِشرط فيه؛ كي *ينفلق*. . . ليس هناك من شيء أكثر مرضا داخل حداثتنا الموبوءة من الشفقة المسيحية. أن نكون أطباء *هنا*، وأن نكون على غاية الصرامة، وأن نحكم المِشرط دون تردد، فتلك هي ميزتن*ا*، وتلك هي محبتن*ا* للإنسان، وبها نكون فلاسفة، نحن سكان الأصقاع الشمالية القصوى![٨]. . .

٨

إنه من الضروري أن نقول من هو النوع الذي نحس به نقيضا لنا: اللاهوتي، وكل من يحمل دما لاهوتيا في شرايينه: مجمل فلسفتنا. . . لابد أن نكون قد شاهدنا الكارثة عن كثب، وأفضل من ذلك، لابد أن نكون قد عشناها عن تجربة شخصية، وأن نكون قد شارفنا على الهلاك بسببها، كي لا نقبل بأي مزاح في هذا الشأن (ولعبة الفكر الحر لدى سادتنا الفزيولوجيين

---

(٧) يجد القارئ مقتطعات كثيرة من «**ديانتي**» لتولستوي في دفتر W II 3 نوفمبر ١٨٨٧-مارس ١٨٨٨ - المجلد ١٣ (التركة) من طبعة الدراسة النقدية لكوللي ومونتيناري.

(٨) «نحن محبوا الإنسانية» مضافة في النسخة المعدة للناشر (Dm)، وغالب الظن أنها ليست من إعداد نيتشه، ذلك كتاب «نقيض المسيح» من مجمل أعمال التركة النيتشوية التي خضعت للكثير من التعديلات والتشويه والتحريف من قبل أخته إليزابيت فوستر نيتشه والناشر بيتر غاست.

وخبراء العلوم الطبيعية هي في نظري *مزاح*؛ تنقصهم *الصبوة* في هذه المسائل، *والمعاناة* من جرائها-). هذا التسمم يذهب أبعد مما نعتقد: كانت غريزة الغرور اللاهوتي تعترضني دوما وبصفة متجددة هناك حيث يشعر المرء بنفسه «مثاليا» في وقتنا الحاضر؛ وحيثما يكون هناك أشخاص يستمدون من أصلهم الاجتماعي الرفيع حقا لهم في النظر إلى الواقع بعين المترفّع، نظرتهم إلى شيء غريب...

يمسك المثالي، مثله مثل القس، بكل المفاهيم الكبرى (ولا يمسك بها بيده فقط) ويسخّرها باحتقارٍ مُحسنٍ لمحاربة «العقل» و«الحواس» و«المجد» و«الرفاه» و«العلم»، وينظر إلى هذه الأخيرة كأشياء دون مقامه، كقوى مضرة غاوية يحلّق «العقل» فوقها مترفعا في حالة من محض الوجود المستقل بذاته؛ كما لو أن التواضع والتبتل والعفة والفاقة، وبكلمة واحدة *القداسة* لم تسبب إلى حد الآن مضارا للحياة أكثر بكثير مما فعل أي نوع من الفظاعات والرذائل... الروح المحض هي محض كذب... وطالما ظل القس، ذلك الذي يتخذ من نفي الحياة والافتراء على الحياة وتسميمها مهنةً، يُعتبر نوعا *أرقى* من البشرية، فإنه لن يكون هناك من جواب على سؤال: ما هي الحقيقة؟.. لأننا نكون قد أقمنا الحقيقة على رأسها عندما يغدو للمرافع الواعي عن العدم والنفي دور الناطق باسم «الحقيقة»...

٩

ضد هذه الغريزة اللاهوتية أخوض الحرب: ولقد وجدت

آثارها في كل مكان. كل من يحمل دما لاهوتيا في شرايينه يقف منذ البدء موقفا منحرفا وغير نزيه من كل الأشياء. وتلك الحالة الذهنية المضطربة التي تنتج عن ذلك تسمى *إيمانا*: أن يغمض المرء عينيه نهائيا كي لا يتألم لمشهد زيف لا برء منه. يتخذ المرء له أخلاقا وفضيلة وقداسة من هذه الرؤية الخاطئة التي ينظر بها إلى كل الأشياء، ويربط *راحة* الضمير بالرؤية *الخاطئة*، ويقضي بأن لا يسمح لأي نوع *آخر* من النظر بأن يكون ذا قيمة، بعد أن يكون قد جعل من نظرته الخاصة قداسة محصّنة بإضفاء أسماء «الله» و«الخلاص» و«الخلود» عليها. لقد حفرت في كل مكان عن هذه الغريزة اللاهوتية، ووجدتها الشكل الأكثر انتشارا، والأكثر تسترا *من بين* كل ما يوجد من زيف على وجه الأرض. كل ما يعتبره اللاهوتي حقيقة لابد أن يكون خطأ: قاعدة يمكن أن تتخذ معيارا للحقيقة. إنها غريزة البقاء الأعمق لديه هي التي تمنع على الواقع كل إمكانية تجعله يحظى بأي اعتبار أو حتى بحق التعبير عن نفسه في أي مجال. وحيثما استقرّ تأثير اللاهوتيين يكون *الحكم القيَمي* مقلوبا على رأسه، ويكون مفهوما «الحقيقة» و«الخطأ» معكوسين بالضرورة: ما هو أكثر ضررا بالحياة يسمى هناك «حقيقة»، وما يرفع من شأنها، وينميها، ويستجيب إثباتا إليها، ويبررها ويجعلها تنتصر، يسمى «خطأ»... وإذا ما حدث أن مد اللاهوتيون أيديهم إلى *السلطة* من خلال «ضمير» الأمراء (-أو الشعوب)، فإننا لا نشك لحظة في ما يحدث في كل مرة: إن إرادة النهاية، الإرادة *العدمية* تريد السلطة...

سيفهمني الألمان دون صعوبة إذا ما قلت أن الفلسفة قد داخلها الفساد بسبب ما خالطها من دم لاهوتي. فالخوري البروتستانتي هو جدّ الفلسفة الألمانية، والبروتستانتية نفسها هي خطيئتها الأصلية–*peccatum originale* . تعريف البروتستانتية: هي الشلل النصفي للمسيحية–وللعقل... يكفي أن ينطق المرء إسم 'Tübinger Stift' («منتدى توبينغن»)(٩) كي يدرك الطبيعة الحقيقية للفلسفة الألمانية: تيولوجيا متسترّة... والشوابيون(*) هم أفضل الكذابين في ألمانيا؛ إنهم يكذبون بكل براءة... من هنا ذلك الابتهاج الجذِل الذي عم أوساط المثقفين في ألمانيا لظهور كانط، وكانوا في ثلثيهم أبناء خوارنة ومدرّسين؛– ومن هنا تلك القناعة التي انتشرت لدى الألمان، وما زال صداها يتردد إلى اليوم، بأن تحولا نحو *الأفضل* قد حدث مع كانط؟ لقد استطاعت الغريزة اللاهوتية لدى العلماء أن تحرز ما قد غدا ممكنا من جديد... هناك طريق مواربة نحو الفكرة المثالية القديمة ظلت مفتوحة؛ وقد غدا الآن بإمكان فكرة «العالم الحقيقي» وفكرة الأخلاق كجوهر للعالم (الخطآن الأكثر خبثا من بين كل ما وجد من الأخطاء)، وبفضل ريبية ماكرة الشطارة، أن تصبح مجددا غير *قابلة للدحض*، وإن ظلت غير قابلة

---

(٩) هي المدرسة الإكليريكية البروتاستنتية الشهيرة التي كان كل من هيغل وشليغل وهولدرلين من تلامذتها.

(*) نسبة إلى مقاطعة من جنوب ألمانيا معروفة بالمحافظة والتزمت، وكل من هيغل وشليغل وهولدرلين من أصيلي تلك المقاطعة. (م)

للبرهان. . . أما العقل، وحقّ *العقل* فيظل قصير اليد بالمقارنة. . . لقد جُعل من الواقع «عالم ظواهر»، وابتُدع عالمُ من محض *الكذب*، هو عالم الكائن، ليُجعل منه واقعا وحقيقة. . . إن نجاح كانط لا يعدو كونه نجاحَ لاهوتيٍّ: لقد كان كانط مثل لوثر، ومثل لا يببنتز كابحا إضافيا لنزاهة ألمانية هشة في حد ذاتها وغير راسخة القدم(١٠). . .

١١

كلمة أخرى ضد كانط كداعية *أخلاقي*. كل فضيلة ينبغي أن تكون شيئا نبتكره *لأنفسنا*، سلاحا لنا وضرورة شخصية خاصة بنا؛ وفي ما عدا ذلك هي خطر محض. فكل ما لا يلزم حياتنا، يضر بها؛ وبالتالي فإن فضيلة لا يسوّغها غير شعور إكبار لفكرة «الفضيلة» كما يريد ذلك كانط، هي شيء مضرّ. «الفضيلة» و«الواجب» و«الخير في ذاته»، الخير الذي يحمل طابع اللاشخصانية، والصلوحية العامة هي خيالات أوهام تعبر عن الانحطاط وعن آخر مراحل استنفاذ الطاقة الحيوية، وعن هراء كونيغسبيرغيّ سخيف. بينما العكس هو ما تقتضيه القوانين العميقة للحفاظ على النفس ومتطلبات النمو: أن يبتكر كل إنسان فضيلته *الخاصة* لنفسه؛ مُلزِمه القطعي *الخاص* به. وعندما يخلط شعب بين واجبه الخاص والمفهوم العام للواجب فإنه سيرى نفسه

---

(١٠) ترد هذه الجملة في W II 7,15 كالآتي: «مجمل ثقافتنا تفوح بنتونة اللاهوت»، ثم «لقد كان كانط، مثله مثل لوثر، أكبر كابح للنزاهة الفكرية»

يمضي إلى الهلاك. لأنه ليس هناك ما يدمر بصفة أعمق وأكثر باطنية مما يفعل الواجب «اللاشخصي» والتضحية التي تقدم قربانا لمولوخ التجريد. -أمر غريب حقا أن لا يدرك المرء أن المُلزِم القطعي الكانطي خطر يتهدد *الحياة*!... إن الغريزة اللاهوتية وحدها هي التي منحته حمايتها! كل عمل تفرضه الغريزة الحياتية يجد في المتعة دليلا على كونه عملا *صائبا*؛ غير أن ذلك العدمي ذا الأحشاء الدوغمائية المسيحية قد رأى في المتعة *عيبا*... وأي شيء يمكن أن يكون أسرع تدميرا من العمل والتفكير والإحساس دون ضرورة داخلية، دون اختيار شخصي عميق، ودون متعة؟ كآلة أوتوماتيكية يحركها «الواحب»؟ إن هذا بالضبط ما يمثل *الوصفة* المثلى للانحطاط، بل وللغباء أيضا... لقد أصبح كانط غبيا. - والحال أن الرجل كان معاصرا **لغوته**! هذه الكارثة العنكبوتية قد اعتُبر آنذاك الفيلسوف *الألماني*، - وما زال يعتبر كذلك!... وأفضّل أن أمسك لساني هنا عن التعبير عن رأيي في الألمان... ألم ير كانط في الثورة الفرنسية مرورا من الشكل غير العضوي إلى الشكل *العضوي* للدولة؟ ألم يتساءل إن كان هناك حدث لا يمكن أن يفسر إلا بالقابلية الأخلاقية لدى الإنسانية، بحيث يمكن لذلك الحدث أن *يقدم الدليل* النهائي عن «نزوع الإنسانية إلى الخير»؟ جواب كانط: «إنه الثورة». الغريزة التي تخطئ هدفها في كل شيء، معارضة الطبيعة متحولةً غريزةً، والانحطاط الألماني فلسفةً؛ - ذلك هو كانط! -[١١]

---

(١١) أنظر عمانوئيل كانط: in Werke, Akademie Ausgabe VII,85 *"Der Streit der Fakultäten"* (تعارض المَلَكات)

١٢

سأطرح جانبا بعض الريبيين، النموذج المستقيم من مجمل تاريخ الفلسفة؛ أما ما عداهم فليس لديهم من معرفة بالمقتضيات الأولية للنزاهة الفكرية. إنهم يتصرفون على غرار كل النساء، كل هؤلاء الحالمين الكبار والحيوانات العجيبة؛- يعتبرون «المشاعر اللطيفة» حججا، و«الصدر المنتفج» منفاخ ورشة حدادة إلهيّ، والقناعة *معيارا* للحقيقة. وأخيرا هو ذا كانط ببراءته «الألمانية» يحاول أن يعلْمن ذلك الشكل من الفساد، وذلك النقص الفادح في الضمير العلمي تحت إسم «العقل العملي»[١٢]: وقد ابتكر لذلك عقلا خاصا، للحالات التي لا يكون على المرء فيها أن يولي اهتماما للعقل، أي عندما تتكلم الأخلاق، وينطق الأمر القدسيّ «ينبغي عليك» بصوت مسموع. وإذا ما اعتبرنا أن الفيلسوف كان لدى كل الشعوب تقريبا الشكل المتطور للنموذج القساوسي، فإن هذه التركة الموروثة عن القس وهذا *التزوير لأجل خداع الذات* لن يكون من شأنها أن تفاجئنا بعدها. وعندما يكون المرء مكلفا بمهمات قدسية مثل إصلاح البشرية وإنقاذها وتخليصها، وعندما يكون حاملا للألوهية في صدره، وعندما يكون لسانا ناطقا بأوامر ملزِمة من العالم العلوي، فإنه وهو يحمل مثل هذه الرسالة سيكون حتما في منزلة خارجة عن مجال مجرد التقديرات المعقولة؛ مقدّسا يغدو هو نفسه من خلال تلك المهمة القدسية، نموذجا هو نفسه لنظام علويّ!...

---

(١٢) كانط: «نقد العقل العملي»- Kritik der praktischen Vernunft

ما للقس و*العلـم* إذن؟ إنه في منزلة أرقى من أن يولي هذا الأمر اهتماما![١٣] – القس هو الذي ظل يسـود إلى حد الآن! وهو الذي كان يحـدّد مفهوم «الحقيقة» و «الباطل»! . . .

١٣

لا نستصغرنّ هذا الأمر: إننا، نحن *أنفسنا*، معشر المفكرين الأحرار، نمثل في حد ذاتنا «قلبا لكل القيم»، وإعلان حرب ونصر مجسدة *لحما ودما* ضد كل الأفكار القديمة عن «الحقيقي» و«الباطل». إن أثمن فهم هو ذلك الذي يُتوصل إليه في وقت متأخر؛ لكن أثمن المفاهيم هي *المناهج*. وكـل المناهج، *كـل* شروط عقلنا العلمي الحالي ظلت لآلاف السنين لا تحظى إلا

---

(١٣) في دفتر المسودات تحت شفرة Mp XVI 4 نجد الفقرة التالية كتتمة لهذا المقطع: «إن المثال المقابل لمنشأ الفلسفة لا يخلو من أهمية، أعني بذلك منشأ العلم. عندما تنكب عائلة ولمدة طويلة من الزمن على تعاطي نشاط بعينه وتغدو بموجب ذلك على غلية من الاتقان في ذلك المجال، فإنه يحدث أن مجمل ما تراكم لديها من براعة ومن تعود على المثابرة والدقة والحذر والإصرار العنيد ينتهي إلى ضرب من السيادة وينزع إلى التعقلن. عندها تتحرر الدربة العقلية الشكلية نوعا ما من الغرض البدئي لتلك الدربة لتغدو حاجة قائمة بذاتها، تعطش للمشكلات،-وتتحول الوسيلة إذن إلى غاية- الروح العلمية هي التعبير عن [متانة] خصلة وعن رهافة في التفكير والعمل موروثة جيلا عن جيل. لذلك نكاد لانعثر عن عبقريات علمية إلا، وبصفة تكاد حصرية، داخل ذرية الحرفيين والتجار والأطباء والمحامين؛ وابن اليهودي له حظوظ لا يستهان بها في أن يصبح عالما ذا شأن. وبالمقابل يصبح أبناء الخوارنة . . . . فلاسفة.» (ملاحظة: نيتشه نفسه ابن لخوري-المترجم-)

بعميق الاحتقار، وبسببها وجد الكثيرون أنفسهم منبوذين ومقصين من حلقة «الرجال الشرفاء»، وكانت لهم سمعة «أعداء الله»، والمزدرين بالحقيقة، و«الممسوسين». لقد كان صاحب الطبع العلمي يعد من منزلة التشاندالا... كنا مستهدفين من قبل مجمل الحماسة العدوانية للإنسانية، ومفهومها عن *ما* ينبغي أن تكون الحقيقة، وما ينبغي أن تكون خدمة الحقيقة: كل «ينبغي عليك» ظل إلى حد الآن موجها ضدنا... مواضيعنا وممارساتنا، وطبعنا المرتاب الحذر؛ كل ذلك كان يتراءى لهم ساقطا ومحتقرا.[١٤] -وبالنهاية يحق للمرء أن يتساءل ليس دون مبرر إن لم يكن هناك في الحقيقة ضرب من الذوق الفني هو الذي جعل الإنسانية تظل أسيرة هذا العماء الطويل: كانت تطلب من الحقيقة أن تكون ذات مفعول بديع، وتطالب العارف في الوقت نفسه بأن يمارس تأثيرا قويا على الحواس. كان *تواضعنا* منفّرا، ظلت تستنكف منه ذائقتهم لمدة طويلة من الزمن... لكم

---

(١٤) في دفتر المسودات تحت شفرة Mp XVI 4 نقرأ ابتداء من هذا الموقع الفقرة التالية: «يبدو كما لو أن تناقضا قد حصل هنا وأن قفزة قد أنجزت. لكن ذلك مجرد مظهر مخادع. وفي الحقيقة إن دربة طويلة عبر سلسلة من المبالغات أيضا هي التي هيأت شيئا فشيئا لنشأة ذلك النوع المعتدل من الولع الذي يتجسد اليوم في هيأة طبع علمي وغدا يحظى بآيات التشريف. صرامة الضمير في الأشياء الصغيرة وضبط النفس الذي كان يمارسه رجل الدين على نفسه بطريقة صارمة كانت دربة أولية، وفي الآن نفسه شكلا أوليا مسبقا للطبع العلمي]للغريزة العلمية[؛ وفي المقام الأول تلك الذهنية التي تأخذ المشاكل بجدية بقطع النظر عما سينجر عنها بالنسبة لهم شخصيا.»

كانوا مصيبين في استشعار هذا الأمر، أولئك الديكة الرومية- ديكة رومية من مزرعة الربّ!

١٤

لقد أعدنا النظر في كل ما تعلمنا. وغدونا أكثر تواضعا في كل أمر. لم نعد نربط الإنسان بأصل واقع في «الروح»، وفي «الألوهية»، بل أعدناه إلى موقعه بين الحيوانات(١٥). فهو الحيوان الأقوى بالنسبة لنا، لأنه الأكثر مكرا؛ وإحدى نتائج ذلك هي ملكته العقلية. كما أننا نحترس من جهة أخرى من ذلك الغرور الذي ما زال يريد أن يُسمع صوته من جديد هنا أيضا، كما لو أن الإنسان يمثل النية الخفية العظمى التي كانت تقود مسار التطور الحيواني. فهو ليس تتويجا للخليقة بأي حال، وكل كائن من الكائنات التي من حوله يقف على نفس الدرجة من الكمال إلى جانبه... وبتأكيدنا لهذا الأمر، تجدنا نمضي أبعد من هذا أيضا، إلى اعتبار مفاده: أن الإنسان هو الحيوان الأكثر إعاقة والأكثر هشاشة، وهو المنحرف عن غرائزه على نحو أكثر خطرا؛ -ومع ذلك كله فهو بحق *الأكثر مثارا للاهتمام* أيضا! وفي ما يتعلق بالحيوان فإن ديكارت كان أول من تجرأ بشجاعة جديرة بالاحترام على فكرة اعتبار الحيوان كآلة- *machina*: طرح ما زالت علومنا الفزيولوجية تجتهد في محاولة

---

(١٥) صياغة أولى لهذه الجملة، من دفتر Mp XVI 4: «لقد أعدنا وضع الإنسان ضمن منزلة الحيوان؛ قد أصبحنا أكثر تواضعا.»

إقامة الدليل على صحته. وهنا أيضا فإننا بطبيعة الحال لا نستثني الإنسان كما يفعل ديكارت: ففهمنا اليوم للإنسان لا يتعدى ما نفهمه عنه كآلة. في ما مضى مُنح الإنسان «حرية الإرادة» كهدية موهوبة له بموجب قانون سماوي؛ أما اليوم فقد سحبنا عنه حتى الإرادة، بمعنى أنه لم يعد يحق اعتبارها ملَكة. فعبارة «إرادة» القديمة لا تصلح إلا للتعبير عن محصَّلة، عن نوع من ردة فعل فردية ضرورية ناجمة عن كمّ من المثيرات المتناقضة في جزء منها، والمتوافقة في جزء آخر: -فالإرادة لم تعد «تفعل»، ولم تعد «تحرك» شيئا... في ما مضى كان يُرى في «وعي» الإنسان وفي «عقله» دليلا على أصله السامي، وعلى ألوهيته؛ ولكي يُرتقى به إلى مستوى الكمال، كان يُنصح بأن يعمل على غرار السلحفاة على سحب حواسه إلى الداخل، وأن يقطع كل علاقة مع الأشياء الأرضية، وأن ينسلخ عن القشرة الفانية: وهكذا لا يتبقى منه غير العنصر الجوهري: «الروح الخالصة». وهنا أيضا عدّلنا رؤيتنا للمسألة: لقد غدا الوعي المكتسب، و«الروح» يمثلان بالنسبة لنا عرَض نقص نسبي يشوب الكيان العضوي؛ محاولة، وتحسسا، وتعثرا؛ جهدا يبدد فيه دون موجب كمٌّ هائل من الطاقة العصبية. -إننا ننفي أن شيئا ما يمكنه أن يتم على وجه مكتمل لا يشوبه نقص طالما نظل نقوم به عن وعي. فـ«الروح المحض» محض حماقة: إن نحن طرحنا الجهاز العصبي والحواس من حسابنا، سنكون قد *أخطأنا كل حساباتنا*- لا أكثر ولا أقل!...

١٥

لا الأخلاق ولا الدين يلامسان نقطة واحدة من الواقع في المسيحية. لا شيء سوى حشد من *العلل الوهمية* («الله»، «النفس»، «الذات»، «الروح»، «الإرادة الحرة» -أو حتى «اللاحرّة»)؛ حشد من *النتائج* الوهمية («خطيئة»، «خلاص»، «رحمة»، «عقاب»، «غفران خطايا»)؛ علاقات بين *كائنات* خيالية («الله»، «أرواح»، «أنفس»)؛ علوم طبيعية موهومة (مركزية بشرية، غياب كلي لمفهوم العلة الطبيعية)؛ بسيكولو*جيا* وهمية (كمّ من سوء الفهم الذاتي، تأويلات لأحاسيس عامة مريحة أو كريهة، مثل حالة العصب الودّي السمتاوي بواسطة لغة الرموز الخاصة بالحساسية الدينية المفرطة («الندم»، «تأنيب الضمير»، «غواية الشيطان»، «الاقتراب من الله»)؛ تيولو*جيا* وهمية («ملكوت الله»، «يوم الحساب»، «الحياة الخالدة»). هذا *العالم الخيالي* الصرف يختلف عن عالم الحلم بوجه اختلافٍ ليس في صالحه، ذلك أن هذا الأخير يعكس الواقع فيما يزوّر هو الواقع ويجرده من قيمته وينفيه. وبعد أن تم ابتكار فكرة «الطبيعة» كنقيض لفكرة «الله» أصبح على عبارة «طبيعي» أن تصير مرادفا لـ«مكروه»، -كل هذا العالم الخيالي له جذوره في الـكراهية التي يقابل بها كل ما هو طبيعي (الواقع!). إنها التعبير عن قلق عميق تجاه الواقع... *لكنّ هذا يفسر كل شيء*: فمن عسى يكون الإنسان الوحيد الذي له ما يدفعه إلى الفرار بنفسه من الواقع داخل الكذب؟ إنه ذلك الذي يعاني من الواقع. لكن المعاناة من

الواقع تعني أن يكون المرء في حد ذاته واقعا *فاشلا*. . . إن غلبة مشاعر القرف على مشاعر المتعة هي علة هذه المتخيَّلات الأخلاقية والدينية: هذا النوع من الغلبة يمدنا بـ*المبدأ* الذي يتأسس عليه الانحطاط. . .

١٦

نقد *المفهوم* المسيحي *لله* سيفضي بنا حتما إلى نفس النتيجة. -إن شعبا له إيمان بنفسه يكون له أيضا إلهه الخاص. من خلاله يعبر عن إكباره للشروط التي تجعله يحتل مرتبة متفوقة، وعن إجلاله لفضائله، وهو يعكس المتعة التي يجدها في نفسه وإحساسَه بالقوة في كائن يمكن للمرء أن يشكره على كل ذلك. من هو غني يريد أن يمنح؛ وكل شعب معتز بنفسه بحاجة إلى إله كي يقدم *قرابين*. . . وهكذا يكون الدّين ضمن مثل هذه الشروط شكلا للاعتراف بالجميل. يكون المرء شكورا لنفسه، وبالتالي يلزمه إله يمكّنه من التعبير عن ذلك. وينبغي أن يكون هذا الإله قادرا على الإفادة وعلى الضرر، وأن يكون بإمكانه أن يكون صديقا أوعدوا؛- ويكون موضوع إجلال في الخير كما في الشر. أما عملية الخصي *المنافية للطبيعة*، التي تجعل من الرب مجرد إله للخير فقط فستكون هنا أمرا غير مرغوب البتة، ذلك أن المرء بحاجة إلى إله قاس حاجته إلى الإله الخيِّر؛ فالإنسان لا يمكن أن يكون مدينا في وجوده إلى التسامح وإلى محبة الإنسان. . . أيّ إله هذا الذي لا يعرف سخطا، ولا انتقاما، ولاغيرة، ولا سخرية، ولا مكرا، ولا عنفا؟ إله ربما لا يعرف

حتى سكرة حمى الانتصار والتدمير؟ لا أحد سيفهم مثل هذا الإله: فما الداعي لوجوده إذن؟ من المؤكد أنه عندما يكون شعب ما على طريق المضي إلى الهلاك، وعندما يشعر بثقته في المستقبل وبأمله في الحرية تضمحل دون رجعة؛ وعندما يستبطن وعيُه الشعورَ بالخضوع كضرورة أولى، وفضائلَ الخضوع كشروط للبقاء، عندها يكون على إلهه أيضا أن يتغير. وسيصبح عندها جبانا، رعديدا، متواضعا، يوصي بـ«سلام الروح»، وبالكف عن الكراهية، وبالرحمة، وبـ«المحبة»، تجاه الصديق وحتى العدوّ؛ إلها لا يكف عن الوعظ الأخلاقي، يزحف داخل مغارة كل فضيلة شخصية؛ يغدو إلها للجميع، يغدو شخصا عاديا، يغدو مواطنا عالميا... في ما مضى كان ذلك الإله يمثل شعبا، وقوة شعب، وكل ما هو هجومي وتعطشٌ للقوة في روح شعب بعينه؛ والآن لا يعدو كونه مجرد إله خيّر... وبالفعل ليس هناك من خيار آخر أمام الآلهة؛ *إما* أن تمثّل إرادة القوة، وعندها ستظل آلهة لشعوب بعينها-، *أو* أن تكون صورة للعجز عن القوة -وعندها سيكون عليها أن تصبح حتما خيّرة...

١٧

حيثما يطرأ بشكل أو بآخر هبوط في إرادة القوة، يكون هناك دوما تراجع فزيولوجي أيضا، ويكون هناك انحطاط. وسيكون على الألوهية المبتورة من فضائلها وغرائزها الذكورية عندئذ أن تغدو حتما آلهة للمتقهقرين فزيولوجيا وللضعفاء. إلا أنهم لا يدعون أنفسهم بالضعفاء، بل بـ«الخيّرين»... وإنه

بإمكان المرء أنْ يفهم دون حاجة إلى إشارة، في أية لحظة من التاريخ ستصبح الثنائية المتخيّلة للإله الخيّر والإله الشرير أمرا ممكنا. وفقا للغرائز نفسها التي تجعل الخاضعين يحطّون من إلههم إلى منزلة «الخير في ذاته»، سيعمد هؤلاء إلى تجريد إله ذوي الغلبة عليهم من كل مواصفات الخير؛ إنهم ينتقمون من أسيادهم بتبْـليس إلههم. - إله *الخيـر*، مثله مثل الشيطان، كلاهما محض نتاج للانحطاط. -كيف يمكن لنا أن نتنازل اليوم لسذاجة اللاهوتيين المسيحيين كي نقرر معهم بأن تطور فكرة الله من «إله إسرائيل»، أي من إله شعب إلى الإله المسيحي أو جوهر الخير كله، يمثل *تقدما*؟ -لكن رينان يفعل ذلك! كما لو أن لرينان الحق في السذاجة! ذلك أن العكس هو ما يبدو واضحا يفقأ العينين. عندما يجرَّد مفهوم الله من شروط الحياة *المتنامية*، ومن كل ما هو قوة وشجاعة وسيادة ونخوة؛ وعندما يسقط شيئا فشيئا إلى وظيفة عكّاز للمتعبين، وطافية نجاة لكل الغرقى؛ وعندما يتحول إلى إله للضعفاء، وإله خاطئين، وإله مرضى بامتياز؛ وعندما لا يتبقى له من الصفات الإلهية عامة غير ما يحمله إسما «المنقذ» و«المخلّص»؛ عمّ ينبئ مثل هذا التحوّل؟ مثل هذا *الاختزال* الذي يجرى على الألوهية؟ -صحيح أن «ملكوت الله» قد عرف اتساعا مع هذا الأمر. في ما مضى لم يكن للرب غير شعبه، شعبه «المختار». وفي الأثناء أخذته طرقات العالم الغريب مثل شعبه، ودروب التهوام، ومنذئذ لم يعد يقر له قرار في مكان؛ إلى أن غدا في بيته في كل مكان من الدنيا، والمواطنَ العالميّ الأكبر، - إلى أن أصبح «العدد الأكبر»

ونصف الأرض إلى جانبه. لكن إله «العدد الأكبر»، الإله الديموقراطي من بين كل الآلهة لم يغدُ مع ذلك بمهابة إله وثنيّ: لقد ظل يهوديا، ظل إله زاوية، إله كل ركن مظلم ومكان معتّم، وكل رَبْع مصاب في العالم كله!... مملكته الكونية هي اليوم كما بالأمس مملكة عالم سفليّ، مصحّة، مملكة دهليزية، مملكةً غيتو... مريضا غدا هو نفسه، على غاية من الشحوب، وعلى غاية من الوهن، وعلى غاية من الانحطاط... حتى أن الأكثر شحوبا من بين الشاحبين قد استطاعوا أن يصبحوا أسيادا عليه؛ السادة الميتافيزيقيون، مُهْق الفكر. وقد ظل هؤلاء يحيكون نسيجهم العنكبوتي من حوله إلى أن غدا منوَّما من جراء حركتهم، عنكبوتا هو نفسه، كائنا ميتافيزيقيا. ثم هاهو الآن يُعيد نسج العالم من صلب ذاته هذه المرة- *sub specie Spinozae* -[(١٦)]، وهاهو يشوه نفسه في هيأة أكثر فأكثر نحافة، أكثر فأكثر شحوبا، ثم يغدو «مثالا»، «روحا خالصا»، «مطلق وجود»، «شيئا في ذاته»... سقوط *إله*: الله متحوّلا «شيئا في ذاته»...

(١٦) «من وجهة نظر سبينوزا». لكن تلاعب نيتشه بالكلمات الذي يتكرر في العديد من كتاباته في ما يخص إسم سبينوزا الذي له قرابة بإسم العنكبوت في الألمانية (Spinne)، يجعلنا نستطيع أن نقرأ العبارة بمعنى «وجهة نظر عنكبوتية» أيضا. وفعل spinnen الذي يعني (ينسج) يعني أيضا في العامية: يقول سخافات. وبالتالي فإن عبارة sub specie spinozae يمكن أن تفهم هنا في معنى ثالث أيضا وهو: من وجهة نظر سخيفة.

١٨

إن المفهوم المسيحي لله -الله كإله للمرضى، الله الرتيلاء، الله كروح- هو واحد من المفاهيم الأكثر فسادا لله مما تُوُصّل إليه على وجه الأرض، ولعله يمثل الدرجة السفلى في تراتب التطور الانحداري للنموذج الإلهي. الله متدنٍّ *نقيضًا للحياة*، عوضا أن يكون تمجيدا لها ونعم أبدية لإثباتها! الله كبؤرة لإعلان العداء ضد الحياة، والطبيعة، وإرادة الحياة! الله كمبدأ لكل ثلب لـ«الدنيا»، و لكل أكاذيب «الآخرة»! الله الذي يؤلّه فيه العدم، وتحاط إرادة العدم فيه بالقداسة![١٧] . . .

١٩

أما أنّ الأجناس القوية للشمال الأوروبي لم تدفع عنها الإله المسيحي، فذلك مما لا يشرّف حسّها الديني الأصيل، كي لا نتكلم عن ذوقها. لقد *كان عليها* أن تقضي على ذلك النتاج المرَضي للانحطاط والحامل لكل مواصفات الوهن والشيخوخة. لكنّ لعنةً قد حلّت عليهم بسبب عدم القضاء عليه؛ لقد فتحوا كل غرائزهم لاحتضان المرض والشيخوخة والتناقض، ومنذ ذلك الحين لم *يبتدعوا* إلاهًا! قرابة الألفي سنة وما من إله جديد! بل

(١٧) في المجلد الثالث عشر من الأعمال الكاملة لنيتشه من طبعة الدراسات النقدية (Studien Kritische Ausgabe) وضمن منشورات التركة نقرأ جملة إضافية تختتم بها هذه الفقرة: «. . .إلى هذا الحد قد مضينا!. . .أما يزال الناس غير عارفين بهذا؟ إن المسيحية ديانةُ عدميةٍ-إرضاء لربها.»

دوما، وإلى الآن، لا شيء غير ذلك الإله البائس للرتابة التوحيدية المسيحية، كما لو كان يقف ثابتا هناك بموجب حق، كشرط نهائي وحد *أقصى* لطاقة ابتداع الآلهة، وللإبداع الروحاني-*creator spiritus* في الإنسان! تلك التركيبة الانحطاطية المسخ الملفقة من لاشيء، من مفهوم مجرد وتناقض، تجد كل غرائز الانحطاط وكل مظاهر الجبن والوهن الروحي مسوّغا لها في داخله!-

٢٠[١٨]

لا أريد في نقدي للمسيحية أن أكون قد أخطأت في حق ديانة أخرى ذات قرابة بها، وتعد متفوقة عليها من حيث عدد المؤمنين بها، وهي *البوذية*. هناك رابطة قربى تجمع بينهما من حيث كونهما ديانتيْن عدميّتيْن؛ -كلاهما ديانتا انحطاط-، لكنهما تختلفان أغرب الاختلاف. وإذا ما كان بإمكاننا اليوم أن نقيم مقارنة بينهما فإن الفضل يعود في ذلك إلى العلماء الهنود الذين أفادوا كثيرا ناقد المسيحية.

البوذية أكثر واقعية بمائة مرة من المسيحية؛ في شرايينها يسري إرث الموضوعية وبرودة الرصانة في طرح المشاكل، وهي قد برزت إلى الوجود على إثر حركة فلسفية متواصلة ممتدة على مدى مئات السنين، وعند مجيئها كانت فكرة الله أمرا قد تم شطبه من الأذهان. والبوذية هي في الواقع الديانة *الوضعية*

(١٨) الفقرتان ٢٠ و٢١ قد وردتا في الأصل تحت عنوان «البوذية والمسيحية»

الوحيدة التي عرفها التاريخ، وذلك حتى في نظرية المعرفة التي تُطوِّرها (ظاهرية صارمة)، وهي لا تقول بـ«محاربة الخطيئة»، بل بـ«محاربة الألم»، مولية بذلك اعتبارا تاما للواقع. لقد أولت ظهرها للخداع الأخلاقي، وهذا هو ما يميزها تماما عن المسيحية،- إنها، بعبارتي الخاصة، تقف *ما وراء* الخير والشر. هناك واقعان فزيولوجيان ترتكز عليهما البوذية وتضعهما دوما نصب عينيها: أولهما، حساسية مفرطة تعبر عن نفسها في شكل قابلية مرهفة للألم، وثانيهما، حياة عقلية مفرطة الكثافة، وحياة طويلة جدا داخل معالجة المفاهيم والأنساق المنطقية، تم في ظلها إلحاق الغبن بالغرائز الشخصية لصالح الغرائز «اللاشخصية» (حالتان سيكون بإمكان البعض من قرائي، «الموضوعيون» منهم، مثلي أنا، أن يتعرفوا عليها عن تجربة). وبسبب هذه الشروط الفزيولوجية نشأت حالة انهيار اكتئابية سيواجهها بوذا باعتماد نظام صحي. لقد استعمل لذلك الغرض وسائل الحياة في الفضاء الطلق، وحياة التجوال، والاعتدال والانتقاء في ما يتعلق بالغذاء؛ الحذر من كل الكحوليات، والحذر كذلك من كل الحالات الانفعالية التي تصيب بداء المرّة وتصعّد فورة الدم؛ تفادي الانشغال بالهموم الخاصة و بهموم الآخرين على حد سواء! وقد أمر بتصورات من شأنها أن تجلب الراحة أو المرح، كما ابتكر وسائل للتخلص من الحاجة إلى الآخرين. وكان يتصور الخير وممارسة الخير كعامل لحفظ الصحة. لا مكان للعبادة، وكذلك الأمر بالنسبة *للزهد*، لا وجود لمُلزِم قطعي، ولا وجود لأي *إكراه* عامة، ولا حتى داخل حياة الأديرة (لكل الحق في

مغادرتها متى يشاء). كل هذه المسائل كانت تمثل وسائل لدعم تلك الحساسية المفرطة. ولذلك السبب بالذات فهو لا يأمر بأي صراع ضد من يفكر بطريقة مغايرة؛ وتعاليمه تنهى أكثر ما تنهى عن مشاعر الانتقام والكراهية والضغينة (-«ليس عن طريق العدوان يمكن القضاء على العدوان[١٩]»: إنها اللازمة الرقيقة المؤثرة لمجمل البوذية...). وقد كان محقا في ذلك؛ فهذه الأحاسيس بالذات تمثل شيئا غير صحي بالنظر إلى الغرض الحِمْيوي الأساسي. وقد أخذ على عاتقه محاربة حالة الوهن الروحي التي وجدها أمامه، والتي تعبر عن نفسها في ضرب من «الموضوعية المفرطة» (أي في تهلهل المصلحة الفردية، وضعف في قوة الارتكاز وفي «الأنانية») بإعادة كل الاهتمامات بما في ذلك الروحانية منها، وعلى نحو صارم، إلى *الدائرة الشخصية*. ستصبح الأنانية واجبا في تعاليم بوذا: «أمر واحد ضروري» وهو «كيف تخلّص *نفسك* من الألم»، ذلك هو الذي ينظم ويرسم حدود مجمل الحِمْية الروحيّة (ولعله يحق لنا أن نتذكر هنا ذلك الأثيني الذي كان يخوض حربا مماثلة على «العقل العلمي المحض»، سقراط الذي رفع الأنانية الشخصية إلى مرتبة المبدأ الأخلاقي ضمن المجال العام للمشاكل.)

---

(١٩) يوردها أيضا هـ. أولدنبوغ في كتاب «بوذا» برلين ١٨٩٧ (تجدر الملاحظة أن هذا الكتاب قد صدر بعد ما يقارب العشر سنوات من تحرير «نقيض السيح» ، وأن نيتشه كان عندها قد انغمس منذ أمد طويل في ليل العتمة العقلية النهائية. (المترجم)

٢١

إن البوذية مشروطة بمناخ معتدل ومستوى رفيع من الرقة والتسامح في مجال السلوكات العامة. لا أثر للنزوعات العسكرية، والحركة البوذية تتخذ موطنا لها داخل الطبقات العليا للمجتمع، بل وحتى الفئات العالمة أيضا. يطمح المرء في البوذية إلى المرح والسكينة والتجرد من الرغبات كهدف أرقى؛ ويبلغ المرء بالفعل هدفه. البوذية ليست ديانة يصبو المرء من خلالها فقط إلى الكمال: فالكمال يكمن في الحالة العادية. -

في المسيحية تحتل غرائز الخاضعين والمضطهَدين موقع الصدارة: إن الطبقات الدنيا هي التي تبحث عن خلاصها فيها. هنا يمارَس النقد الذاتي وإفتاءات التخطئة، و التفتيش المسلّط على الضمير كـمهمة *شاغلة*، وكوسيلة لتزجية الوقت ودرء الضجر؛ هنا يتم على الدوام شحذ جذوة الأحاسيس الانفعالية تجاه كائن قديـر يدعى الله (عن طريق الصلاة)؛ وهنا يكون الخير الأعظم أمرا يستعصي على البلوغ؛ بل ما هو إلا هبة و«رحمة». هنا لا مكان أيضا للوضوح العلني، فالمخبأ والزاوية المعتّمة من مكونات المسيحية. هنا يحقّر الجسد، ويكون حفظ الصحة متعة حسيّة مرفوضة؛ بل إن الكنيسة تعارض حتى النظافة (وأول الإجراءات المسيحية التي اتخذت على إثر طرد الموريسكيين كان غلق الحمّامات العمومية التي كانت لقرطبة وحدها ٢٧٠ منها). مسيحي أيضا هو ذلك النزوع إلى القسوة الفظيعة تجاه النفس والآخرين، والحقد على من يفكر بطريقة

مغايرة، وإرادة الاضطهاد. تصورات قاتمة ومقلقة هي التي تحتل الصدارة، والحالات المرغوبة أكثر من غيرها، والتي تسمى بأسمى وأنبل الأسماء هي حالات لها طابع الصرع؛ أما النظام الصحي فيقوم على كل ما يبجل الظواهر المرضية ويستثير الأعصاب. مسيحيٌّ هو العداء القاتل تجاه أسياد الأرض، و«النبلاء»، -وفي الآن نفسه منافسة سرية مقنَّعة (يُترك لهم «الجسد»، ولا يُطلب غير «الروح». . .). مسيحيةٌ هي كراهية *العقل* والنخوة والشجاعة والحرية، وخلاعة العقل؛ مسيحي هو الحقد على *الحواس*، وعلى غبطة الحواس، وعلى الفرح عامة. . .

٢٢

عندما غادرت المسيحية أرضها الأولى والطبقات الدنيا والعالم السفلي للعصور القديمة، وعندما ارتحلت باتجاه اكتساب القوة بين الشعوب الهمجية، لم تعد تجد نفسها أمام أناس متعبين كقاعدة بشرية لشرط قيامها، بل أمام شعوب متوحشة الدواخل ومتناهشة بضراوة -إنسان قوي، لكنه غير موفّق. غير أن عدم الرضا عن النفس، والضيق بالنفس لا تتجسد هنا كما في البوذية في شكل حساسية مفرطة وقابلية للألم، بل على العكس من ذلك، في رغبة جامحة في الإيذاء وتفريغ شحنات التوتر الداخلي في تصورات وأعمال عدوانية. كانت المسيحية بحاجة إلى أفكار وقيم متوحشة كي تغدو سيّدا على البرابرة: فكانت أضحية البواكير، وشرب الدم في العشاء السري، واحتقار

العقل والثقافة، والتعذيب بشتى أنواعه الحسية منها والمعنوية، والأبهة الكبرى في الطقوس.

البوذية ديانة لجنس إنساني من زمن متأخر، لأجناس طيبة، رقيقة، أجناس صارت مفرطة الروحانية، سهلة الحساسية للألم (أوروبا ما تزال بعيدة جدا عن بلوغ النضج الذي يؤهلها لمثل هذا الأمر): البوذية عودة بهذه الأجناس إلى السلام والمرح، وإلى حِمْية روحية، وإلى نوع من المتانة الجسدية. أما المسيحية فتريد السيادة على *كواسر*؛ وسيلتها في ذلك هي إصابة تلك الكواسر *بالمرض*؛ فالانهاك والإصابة بالضعف هي الوصفة المسيحية *للتدجين*، و لتأسيس «الحضارة». البوذية ديانة لنهايةِ وعياءِ الحضارة، بينما ليس هناك من حضارة أمام المسيحية، - فهي التي تؤسسها عندما يقتضي الأمر.

٢٣

البوذية مرة أخرى أكثر برودة وحقيقيّة وموضوعية بمائة مرة. لم تعد بحاجة إلى أن تجعل من معاناتها وإحساسها بالألم أمرا *محترما* عن طريق تأويل مفهوم الخطيئة؛ إنها تقول فقط ما تفكر فيه: «أنا أتألم». وعلى العكس من ذلك فإن الألم لا يعد أمرا محترما في حد ذاته لدى الإنسان المتوحش: بل يحتاج أولا إلى تفسير كي يعترف بأنه يتألم (غريزته تدفع به أولا إلى نفي الألم، وإلى المعاناة بصمت). ههنا جاءت عبارة «شيطان» بمثابة الحسنة : لقد غدا للمرء عدو فظيع وذو سلطان؛ وبالتالي لم يعد هناك من داع للخجل من المعاناة بسبب هذا العدو. -

للمسيحية بعض مميزات دقيقة من تلك التي يتميز بها الطابع الشرقي. فهي تعلم بالمقام الأول أنه لا يهم أن نعرف إن كان أمر ما حقيقة أم لا، لكنه سيكون من الأهمية بمكان أن يُعتقد فيه كحقيقة. إن الحقيقة، و*الإيمان* بأن شيئا ما حقيقة هما مجالا مصالح بعيدان كل البعد عن بعضهما، بل عالمان *نقيضان* تقريبا، يتوسلهما المرء من طريقين مختلفين تمام الاختلاف. وأن يكون المرء عارفا بهذا الأمر هو ما *يجعل* منه في الشرق حكيما تقريبا: ذلك ما فهمه البراهمانيون، وذلك ما فهمه أفلاطون وكل تلامذة الحكمة الباطنية. وعندما تكون سعادة المرء مثلا في أن يعتقد في الخلاص من خطيئة، فإنه لن يكون من الضروري أن يكون خطيئا، بل أن يكون *له* شعور بأنه خطيء. وإذا كان ما يحتاج إليه كضرورة أولى هو الإيمان، فإنه سيكون على المرء إذن أن يحط من شأن ومصداقية العقل والمعرفة والبحث: ويغدو الطريق إلى الحقيقة طريقا *ممنوعا*. إن الأمل القوي حافز للحياة أكبر بكثير من أي سعادة فردية متحققة في الواقع. وبالتالي فإنه ينبغي أن يقدَّم للذين يتألمون سندا عن طريق أمل لا يناقضه أي واقع، - أمل لا *يضمحل* في إنجاز ما: أمل ماورائي (بسبب هذه المقدرة بالذات على إرضاء ومماطلة البائسين بالأماني الكاذبة كان اليونانيون يعتبرون الأمل شر الشرور؛ الشر الأكثر مكرا وخداعا: فالشر هو ما تبقّى في قاع الجرة)[٢٠]. كي يكون الحب

(٢٠) إشارة إلى جرّة باندورا من الأسطورة اليونانية. (وبعض المصادر تسميها صندوق باندورا). وجرة باندورا حسب الأسطورة تحتوي كل الشرور

أمرا ممكنا، لابد أن يكون الربّ شخصا؛ وكي يكون للغرائز السفلى حضور، لابد أن يكون الرب شابا. وكان لا بد من قديس وسيم يتصدر المشهد من أجل صبوة النساء، ومن عذراء لِحَميّة لرجال. كل ذلك بشرط أن يكون للمسيحية إرادة أن تغدو سيدا على أرضٍ كانت الطقوس الأفرودية والأدونيسية قد حددت مفهوم العبادة فوقها. كما أن الدعوة إلى العفة تضاعف من عنف الغرائز الدينية وتزيد من ترسخها العميق؛ إنها تجعل العبادة أكثر حرارة وأكثر حماسا وأكثر وجدانية. -فالحب هو الحالة التي يرى الإنسان فيها، أكثر من أية حالة أخرى، الأشياء على غير ما هي عليه. هنا تكون طاقة الاستيهام في أعلى درجاتها، وكذلك الطاقة على التحلية *والتجميل*. يتحمل المرء في الحب أكثر مما يفعل عادة، ويقبل بكل شيء. كان لا بد من أن يبتكر المرء دينا يكون فيه مكان للحب: وبذلك يكون بإمكان الإنسان أن يتجاوز أشنع الأشياء في الحياة؛ لأنه لن يراها بعد ذلك البتة. هذا عن الفضائل الثلاث للمسيحية: الإيمان، والمحبة والأمل(٢١)، وأسميها *الحيل* المسيحية الثلاث. أما البوذية فهي أكثر تأخرا وأكثر وضعيةً من أن تكون ماكرة على هذا النحو. -

---

ومن بينها الشيخوخة والمرض والحرب والمجاعة والبؤس والجنون والرذيلة والخداع واللهوى، وكذلك الأمل. وعندما فتحت باندورا الجرة المحرمة نزولا عند إلحاح الفضول خرجت منها كل الشرور إلى العالم، ولم يتبق في القاع غير الأمل الذي كان بطيء الحركة عندما سارعت باندورا بإعادة غلقها. (م)

(٢١) أنظر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس؛ ١٣/١٣: «أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة لكنّ أعظمهنّ المحبةُ»

٢٤

سأكتفي هنا بملامسة مسألة نشـأة المسيحية. *المبدأ الأول* لحل هذه المسألة يقول: لا يمكن فهم المسيحية إلا من منطلق الأرض التي نشأت فوقها، فهي ليست حركة مضادة للغريزة اليهودية، بل نتيجتها، وخلاصة إضافية من صميم منطقها الشنيع، ومن مبدئها القائل: «الخلاص يأتي من اليهود»[٢٢]. *والمبدأ الثاني* هو: مازال بالإمكان التعرف على النموذج البسيكولوجي للجليليّ، لكنه لم يغدُ قابلا للاستعمال للغرض الذي استعمل من أجله كنموذج لمخلّص الإنسانية إلا في هيأة انحطاطه الكلي (الذي هو في الآن نفسه تشويه وشحن مفرط بملامح أجنبية).

اليهود أغرب شعب عرفه التاريخ، لأنهم، عندما وجدوا أنفسهم يواجهون مسألة الوجود وعدم الوجود، فضلوا بوعي مفزع أن ينحازوا إلى تبجيل الوجود *بكل ثمن*: وكان ثمن ذلك هو تزوير جذري لكل طبيعة، ولكل طبيعي، ولكل واقعية العالم الداخلي والخارجي على حد سواء. انسحبوا من مجمل الشروط التي كان يعيش ضمنها كل شعب إلى حد ذلك الزمن، والتي كانت تمكن كل شعب من *الحق* في العيش؛ وابتدعوا من أنفسهم نقيضا لكل شرط طبيعي؛- ولقد مارسوا على كل من الدين والعبادة والأخلاق والتاريخ والبسيكولوجيا عمل قلب

---

(٢٢) يوحنا ؛ الإصحاح الرابع: ٢٢: «أما نحن فنسجد لما نعلم. لأنّ الخلاص يأتي من اليهود.»

ليحولوها نهائيا ودون رجعة إلى نقائض *لقيمها الطبيعية*. نلتقي اليوم أيضا بنفس الظاهرة مرة أخرى وبحجم مفخم إلى أبعد الحدود، لكنه مجرد نسخة عن ذلك الأصل مع ذلك: فالكنيسة المسيحية، مقارنة بـ«الشعب المقدس»، تفتقر إلى كل طموح إلى الأصالة. إن هذا بالذات هو ما يجعل اليهود الشعب *الأكثر شؤما* في تاريخ البشرية: لقد مارسوا في تأثيراتهم اللاحقة من التزييف على الإنسانية، ما يجعل المسيحي اليوم أيضا يشعر بنفسه معاديا لليهودية دون أن يكون قادرا على أن يفهم أنه *النتيجة النهائية لليهودية*.

لقد قدمت في «جينيالوجيا الأخلاق»[٢٣] لأول مرة طرحا بسيكولوجيا للتناقض بين أخلاق *نبيلة* وأخلاق الضغينة، تكون الأخيرة فيه ناشئة عن *نفي* للأولى: لكن هذه هي الأخلاق المسيحية اليهودية في كلها وتمامها. ولكي يكون بإمكان شعب أن يقول لا لكل ما يمثل حركة *الارتقاء* في الحياة، واكتمال الخلقة، والقوة، والجمال، والاستجابة الإثباتية للذات، لابد أن تكون غريزة الإضطغان المتحولة عبقريةً قد ابتدعت عالما *آخر* تتراءى *الاستجابة الإثباتية للحياة* من خلاله كتجسيد للشر في ذاته، وللمكروه في ذاته. إن الشعب اليهودي، من وجهة نظر بسيكولوجية، شعب ذو طاقة حياتية من أصلب ما يكون، قد فضّل، وهو يجد نفسه مجبرا على العيش ضمن شروط مستحيلة، أن ينحاز طواعية ومن منطلق الذكاء العميق لغريزة

---

(٢٣) «جنيالوجيا الأخلاق» - المطارحة الأولى.

البقاء إلى كل ما يمثل انحطاط الغرائز، -لا لكونه خاضعا لتلك الغرائز، بل لأنه حزر فيها قوة تجعله قادرا على فرض نفسه على «العالم». إنهم نقيض كل المنحطين: لقد كان عليهم أن يذهبوا في تمثيل الانحطاط إلى حدود الوهم، وقد عرفوا بعبقرية مسرحية مفرطة (*non-plus-ultra*) كيف يقفون على رأس كل حركات الانحطاط (في هيأة مسيحية *بولس*-)، كي يصنعوا منها شيئا يكون أقوى من كل موقف *إثباتي* للحياة. فالانحطاط ليس سوى *وسيلة* بالنسبة للنوع البشري الذي يصبو إلى القوة داخل المسيحية اليهودية: النوع *القساوسي*؛ فهذا النوع من الناس له مصلحة حياتية في جعل الإنسانية مريضة، وفي قلب مفاهيم «الخير» و«الشر» و«الحق» و«الخطأ» وجعلها تتخذ منحى خطيرا على الحياة ومفترٍ على العالم.

٢٥[(٢٤)]

لتاريخ إسرائيل أهمية لا تقدر كنموذج لتاريخ تشويه طبيعة القيم الطبيعية: سأذكر هنا خمس وقائع عن هذا الأمر. في البدء، وبصفة أخص في عهد الملوك، كان لإسرائيل أيضا علاقة سليمة

---

(٢٤) المصدر الذي اعتمده نيتشه في تحرير هذا المقطع، وكذلك المقاطع اللاحقة، ومجمل ملاحظاته حول تاريخ إسرائيل، هو يوليوس فلهاوزن في كتابه Julius Wellhausen, *Prolegomena zur Geschichte Israels;* Berlin 1883. وقد قرأ نيتشه هذا الكتاب باهتمام بالغ خلال خريف ١٨٨٧ وشتاء ١٨٨٨، كما تدل على ذلك الملاحظات الكثيرة التي كان يخطها على هامش صفحات النسخة المحفوظة في «مكتبة نيتشه».

أي علاقة طبيعية بجميع الأشياء. وكان يهوه يمثل تعبيرا عن وعي القوة، وعن الغبطة التي يجدها شعب في نفسه، وعن الأمل الذي يعلقه على نفسه: داخله يضع الناس آمالا في النصر وفي الخلاص، وبواسطته يضعون ثقتهم في الطبيعة في أن تمنحهم ما يحتاجونه: المطر في المقام الأول. كان يهوه إله إسرائيل، و*بالتالي* إله العدالة: إنه منطق كل شعب يمتلك القوة وينعم بضمير هنيء بسبب تلك القوة. ويعبر هذان الجانبان من الاستجابة الإثباتية لشعب بعينه عن نفسهما في طقوس الاحتفالات الدينية: اعتراف بالجميل للأقدار العظيمة التي جعلته يتبوأ تلك المرتبة السامية، واعتراف بالجميل للدورة السنوية وما تجلبه من نعمة في الماشية والزرع. -وقد ظل هذا الحال قائما كمثال نموذجي لمدة طويلة من الزمن، حتى بعد ما حُكم عليه بالزوال على نحو محزن: الفوضى في الداخل، والأشوري من الخارج. لكن الشعب ظل متمسكا، تمسكه بأسمى الطموحات، برؤيته عن المِلك النموذجي كجندي باسل وقاض صارم؛ وبصفة أخص ذلك النبي النموذجي (ناقد وهجّاء ساخر لذلك الزمن): اشعياء. لكن كل الآمال ظلت غير متحققة. والإله القديم لم يعد *قادرا* على ما كان قادرا عليه في ما مضى. وكان من الأجدر لو أنه تم التخلي عنه. لكن ما الذي حدث؟ غيّر الناس مفهومهم للرب؛ تم تشويه *طبيعة* ذلك المفهوم: بهذا الثمن ظلوا متمسكين به. يهوه إله «العدالة» لم يعد يمثل وحدة مع إسرائيل، وتعبيرا عن اعتداد شعب بذاته: بل ربا تحت شروط بعينها... ستتحول فكرة الله إلى أداة بين أيدي محرضين قساوسيّين قد غدوا يتأولون

كل حدث سعيد على أنه ثواب، وكل حدث مشؤوم على أنه عقاب على «خطايا» وعلى عدم طاعة الرب: طرائق تأويل كاذبة لـ «نظام أخلاقي» مزعوم قد تم بموجبها قلب العلاقة الطبيعية لمفهومي «العلة» و«النتيجة» رأسا على عقب، وإلى الأبد. وبعد أن تم إلغاء العلاقة السببية الطبيعية بواسطة الثواب والعقاب أصبحت هناك حاجة إلى سببية *منافية للطبيعة*: سيتبع ذلك منذ الآن كل ما تبقى من الأمور المنافية للطبيعة. إله يأمر عوضا عن إله يساعد وينصح، إله يكون في الحقيقة تعبيرا عن كل إلهام سعيد يبث الشجاعة والثقة بالنفس... أما الأخلاق فلم تعد تعبيرا عن شروط الحياة ونمو شعب، وغريزته الحياتية الأولى، بل تحولت إلى تجريد ونقيض للحياة؛ أخلاق كتردٍّ جذري للخيال، و«عين سوء» على كل الأشياء. ما هي الأخلاق اليهودية؟ وما هي الأخلاق المسيحية؟ الصُدفة مجردة من براءتها؛ الشؤم ملطخا بفكرة «الخطيئة»؛ الغبطة كخطر و«غواية»؛ التوعك الفزيولوجي مسمّمًا بدودة الضمير...

٢٦

زُوّرت فكرة الله، وزوّرت فكرة الأخلاق؛ لكن المؤسسة القساوسية اليهودية لم تقف عند هذا الحد. تراءى لهم أنه بإمكانهم أن يستغنوا عن كل *تاريخ* إسرائيل: ليضمحل إذن! – لقد أنجز أولئك القساوسة أعجوبة عملهم التزويري على نحو جعل جزء هاما من الإنجيل يكوّن وثيقة عنه: باحتقار لامثيل له تجاه كل تقليد وكل واقع تاريخي تأولوا ماضي شعبهم *تأويلا دينيا*، أي

أنهم جعلوا منه آلية خلاص سخيفة قوامها الذنب تجاه يهوه والعقاب الذي ينتج عنه، والتقوى تجاه يهوه وما يتبعه من ثواب. وكان من المفترض أن نتقبل هذا التزوير المخجل للتاريخ بحساسية أليمة للغاية لو لم تجعلنا آلاف السنين من التأويل الكنسي للتاريخ فاقدي الحس تقريبا تجاه متطلبات الأمانة التاريخية. ثم جاء الفلاسفة ليجعلوا من أنفسهم سندا للكنيسة: لقد اخترقت أكذوبة «النظام الأخلاقي للحياة» مجمل تاريخ تطور الفلسفة وصولا إلى الفلسفة الحديثة. ماذا يعني «النظام الأخلاقي للحياة»؟ إنها تعني أن هناك إرادة إلهية ثابتة إلى الأبد في ما يتعلق بما ينبغي على الإنسان أن يفعله وما ينبغي عليه أن يتركه، وأن قيمة شعب أو فرد ما تقاس بمدى الطاعة التي يبديها لمشيئة الله، وأن مصير شعب أو فرد ما يتحدد بإرادة الله كسيّد ذي *سلطان*، أي كمُثيب أو معاقب بحسب مدى الطاعة، أو العصيان. أما *الواقع* الذي تحجبه هذه الأكذوبة البائسة فهو: هناك نوع من الطفيليين لا يستطيع أن ينتعش إلا على حساب المكوّنات السليمة للحياة، هو *القس*، يستغل إسم الله لغايات بعينها: يمنح وضعا يكون القس فيه هو الذي يحدد قيمة الأشياء إسم «ملكوت الله»؛ ويدعو الوسائل التي تمكّن من بلوغ مثل هذا الوضع أو من الحفاظ عليه «مشيئة الله»؛ وبصلافة باردة يقيّم الأفراد والشعوب والحقب الزمنية بحسب ما تبديه من طاعة أو تنطع على السلطة المهيمنة للقساوسة. لننظر إلى عملهم: على أيدي القساوسة تحول العصر الذهبي لإسرائيل إلى عصر تفكك وانحلال؛ وقد غدا المنفى والمحنة الطويلة *عقابا* أبديا على خطيئة العصر

الذهبي؛ عصر لم يكن فيه للقس من وجود بعد... جعلوا من الشخصيات القوية *والحـرة إلى أبعد الحدود* من تاريخ إسرائيل، إما مجرد منافقين بائسين، أو «كفرة»، وذلك بحسب ما تقتضيه الحاجة عند كل حالة، كما اختزلوا سيكولوجية كل حدث عظيم في المعادلة السخيفة لـ«طاعة أو عصيان الله»؛ يعني أنه لا بد أن يُعرَّف بالشروط التي تضمن بقاء سلطة القس. -للإيفاء بهذا الغرض، لا بد من «وحي». بعبارة واضحة: هناك حاجة ماسة إلى تزوير أدبي كبير، وهناك «كتاب مقدس» يتم اكتشافه، - كتاب سيعرف طريقه إلى العموم ضمن أبّهة كهنوتية في طقوس كفّارات وعويل متفجّع على «الخطيئة» السائدة لمدة طويلة من الزمن. فـ«الإرادة الإلهية» كانت قائمة ومعلنة منذ زمن طويل؛ والشؤم كل الشؤم كان في الابتعاد عن «الكتاب المقدّس». ألم يكشف لموسى منذ زمن بعيد عن «الإرادة الإلهية»؟...

ما الذي حدث إذن؟ لقد حدد القس نهائيا وإلى الأبد كل الأمور بصرامة وحذلقة، بما في ذلك الضرائب الصغيرة منها والكبيرة التي يدين له بها الرعايا؛ أي *كل ما يريد أن يأخذه*؛ لأن تلك هي «الإرادة الإلهية» (دون أن ننسى قطع اللحم الجيدة واللذيذة، ذلك أن القس آكل «بيف ستاك»)... ومن الآن فصاعدا ستغدو كل مسائل الحياة مضبوطة على نحو يجعل *حضورالقس في كل مكان أمرا* لاغنى عنه؛ في كل الوقائع الطبيعية للحياة: في الولادة، وفي عقد القران، وفي المرض، وفي الوفاة، دون أن نتحدث عن طقوس الأضاحي («الغداء») يظهر الطفيلي المقدس ليشوه *طبيعتها*، أو بلغته هو،

لـ«يطهّرها». . . لأنه علينا أن نفهم هذا الأمر: كل فضيلة طبيعية، وكل مؤسسة طبيعية (الدولة، والقضاء، والزواج، والعناية بالفقراء والمرضى) وكل ضرورة تحددها غريزة الحياة، وفي كلمة، كل ماله قيمة في *ذاته*، ستجعل منه طفيليةُ القس (أو «النظام الأخلاقي للحياة») شيئا عديم القيمة أو ذا قيمة *سلبية*، ويحتاج إلى تقرير و مصادقة بعديّة؛ - وتكون هناك حاجة إذن إلى قوة *مانحة للقيمة*، تنفي الطبيعة وعندها، وبذلك فقط، *تخلق* قيمة. . . يجرد القس الطبيعة من القيمة ويسحب عنها *قداستها*: بهذا الثمن فقط يتسنى له أن يكون موجودا. سيعطى لعصيان الله الآن، أي عدم الامتثال للقس ولـ«القانون» إسم «خطيئة»؛ أما وسائل «التصالح مع الله» فستكون بطبيعة الحال وسائل تحقق خضوعا أعمق للقس: القس وحده هو الذي «يخلّص». . . ومن وجهة نظر بسيكولوجية، ستكون «الخطايا» داخل كل مجتمع ذي تنظيم قساوسيّ شيئا ضروريا: لأنها أدوات حقيقية للسلطة، والقس يعيش من الخطايا، وهو بحاجة إلى أن «تقترف خطايا». . . قانون أعلى: «إن الله يغفر لمن تاب»- أي بعبارة أوضح: *لمن يخضع ويخفض جناح الذل للقس*. -

٢٧ (٢٥)

على مثل هذه الأرضية *المزيّفة*، حيث كل قيمة طبيعية، وكل *واقع* يجد نفسه متعارضا مع الغرائز العميقة للطبقة المهيمنة،

---

(٢٥) أنظر للمقارنة، المجلد الثالث عشر من الأعمال الكاملة (طبعة الدراسات

نشأت المسيحية، كشكل لمعاداة قاتلة للواقع لم يسبق لها من مثيل إلى حد ذلك الزمن. ذلك «الشعب المقدس» الذي لم يعد يملك تجاه كل الأشياء سوى قيم كهنوت وعبارات كهنوت، والذي عمد بموجب منطق صارم يبعث على الفزع إلى التنصل من كل ما ظل قائما على وجه الأرض من مظاهر القوة كـ «مدنّس» و«دنيوي» و«خطيئة»؛ قد صاغ هذا الشعب لغريزته شكلا نهائيا متناسقا في منطقه حد نفي الذات: لقد توصل في *المسيحية* إلى نفي الشكل الأخير للواقع، ونفي «الشعبِ المقدس»، و«الشعبِ المختار»، والواقعِ اليهودي نفسه. والحالة هنا حدث من الدرجة الأولى: حركة التمرد الصغيرة المعمدة بإسم يسوع الناصري هي الغريزة اليهودية مرة *أخرى* -أو بعبارة

النقدية): شذرات التركة (نوفمبر ١٨٨٧-مارس ١٨٨٨) الجزء ١١، فقرة ٢٨٠. سيعرض نيتشه في الفقرات اللاحقة (حتى الفقرة ٤٧) من كتاب «نقيض المسيح» تأويله الخاص لظاهرة المسيحية البدئية كتمرد سلمي ضد «الكنيسة» اليهودية، لكنها كحركة تمرد ستجد نفسها مع ذلك في تناقض مع مؤسسها. وشذرات التركة المنشورة في المجلد الثالث عشر تنبئنا عن المصادر التي اعتمدها نيتشه في صياغة تأويله هذا، ومن بينها عمل إرنست رينان الذي يتعرض إليه بالنقد في العديد من المواقع، وكذلك تولستوي («ديانتي») ودوستويفسكي (نموذج «الأبله»). وإلى حد قريب (بحوث الإيطاليين كوللي ومونتيناري) ظل هناك شك يحوم حول ما إذا كان نيتتشة قد اطلع على كتاب تولستوي المذور أم لا. وقد التزمت مؤسسة أرشيف نيتشه الصمت بصفة غامضة بالرغم من وجود شذرات عديدة في مسودات نيتشه بها مقتطفات من كتاب تولستوي. بل قد ذهب ناشرو كتاب «إرادة القوة» الذي لفقه الورثة تلفيقا، إلى إقحام العديد من تلك المقتطفات كما لو كانت من تأليف نيتشه.

أخرى، هي غريزة القس التي لم تعد تقبل بالقس كواقع متحقق، وابتكار شكل للوجود *أكثر تجريدا*، ورؤية للعالم *أكثر لا واقعية* من تلك التي اشترطت وجود تنظيم كنيسي. إن المسيحية تنفي الكنيسة...

لست أدري ضد من يتجه التمرد الذي اعتُبر يسوع عن صواب أو عن *خطأ* مدبّره، إن لم يكن تمردا ضد الكنيسة اليهودية، الكنيسة بالمعنى الذي نفهمه اليوم من هذه العبارة. لقد كان تمردا ضد «أهل الصلاح والعدل»، وضد «قديسي إسرائيل»، وضد التراتب الاجتماعي-لا ضد فساده، بل ضد الطبقة، والامتياز، والنظام، والقانون؛ كان تعبيرا عن عدم *الإيمان* بـ«الرجال الراقين»، و*رفضا* معلنا ضد كل ما كان قسا ولاهوتيا. لكن التراتب الاجتماعي الذي يوضع موضع السؤال هنا، وإن كان ذلك لفترة وجيزة من الزمن فقط، كان هو المبنى الموتَّد، الذي كان يسمح للشعب اليهودي من مواصلة الحياة داخل «الماء»، والإمكانية *الأخيرة* التي تم التوصل إليها بعسر من أجل ضمان البقاء، والراسب الأخير لوجوده السياسي المتميّز: الإجهاض على هذا الأسّ يعني الإجهاض على الغريزة الأكثر عمقا للشعب، وعلى ما يحدو ذلك الشعب من إرادة حياة من أمتن وأصلب مما عُرف على وجه الأرض عامة. ذلك القديس الفوضوي الذي جاء يحرض الفئات الدنيا من الشعب، والمهمّشين و«الخاطئين» و شاندالا اليهودية على مناهضة النظام المهيمن، وبلغةٍ، إذا ما أولينا مصداقية للأناجيل طبعا، من شأنها أن تودي في عصرنا الحاضر بصاحبها إلى سيبيريا، كان ذلك

القديس الفوضوي مجرما سياسيا، إذا ما افترضنا طبعا أن وجود مجرمين سياسيين ممكن داخل مجتمع غير مسيّس إلى أبعد الحدود. لقد قاده ذلك إلى الصليب، والدليل على ذلك تلك العبارة المرسومة فوق الصليب: مات بسبب ذنبه، - وإنه لأمر يفتقر إلى أي أساس، مهما ترددت مزاعم العكس، أن يكون قد مات من أجل خطايا الآخرين.

٢٨

سؤال آخر مختلف تماما وهو المتعلق بما إذا كان واعيا أصلا بهذا التناقض، -أم أن الناس في ما بعد هم الذين رأوا فيه نقيضا. ههنا، وهنا فقط ألامس مسألة بسيكولوجيا *المخلّص*.

أعترف بأنني لا أقرأ سوى قلة من الكتب التي تحمل مثل هذه الصعوبات التي تتضمنها الأناجيل. وهذه الصعوبات تختلف عن تلك التي استطاع الفضول العلمي للعقل الألماني أن يحقق انتصارات لا تنسى بمتمحيصها. لقد ولى ذلك الزمن الذي كنت فيه، أنا أيضا، وككل العلماء الشبّان أنكب بتلك الأناة الفطِنة لفيلولوجي مرهف العقل على تذوق مؤلّف لشتراوس الفريد من نوعه. كنت في سن العشرين آنذاك؛ أما اليوم فإنني أكثر جدية من أن أجد متعة في مثل هذه الأشياء. ماذا تعنيني تناقضات «الموروث»؟ وكيف يسمح امرؤ لنفسه بأن يطلق إسم «موروث» على خرافات قديسين! فأقاصيص القديسين هي النوع الأدبي الأكثر التباسا على الإطلاق: أن نطبّق عليها المناهج العلمية ،

في غياب *كل* وثيقة، فذلك ما يبدو لي لي أمرا محسوما من البداية؛- مجرد تزجية وقت لعلماء عاطلين...

٢٩

إن ما يعنيني هو النموذج البسيكولوجي للمخلّص. من الممكن أن يكون ذلك مضمّنًا داخل الأناجيل، رغما عن الأناجيل، وإن ورد في أغلب الأحيان مشوها أو مثقلا بملامح أجنبية غريبة، مثل ما تحفظه لنا أساطير فرنسوا الأسّيزي، بالرغم من خرافاته. ليست حقيقةُ ما قام به وما قاله، وكيف مات، (هو ما يعنيني)، بل ما إذا كان نموذجه قابلا للتصور، ومسألة ما إذا تم «نقله» حقا عن طريق الموروث؟ - إن ما أعرفه من محاولات لاستقراء حتى ما يمكن أن يعدّ *تاريخ* «نفْس» من خلال الأناجيل تبدو لي كلها براهين على عدم جديةٍ بسيكولوجيّةٍ كريهة. وقد أدرج السيد رينان، ذلك المهرج السخيف في المجال البسيكولوجي، المفهومين الأكثر مجانبة للواقع في تفسيره للنموذج اليسوعي، وهما: مفهوم العبقري، ومفهوم البطل. إلا أنه إذا ما كان هناك من شيء لاإنجيلي حقا، فإنما هو مفهوم البطل. ذلك أن النقيض لكل ما هو صراع وكل ما هو إحساس بالوجود في غمرة القتال هو ما تحول إلى غريزة في الأناجيل: عدم القدرة على المقاومة يغدو هنا أخلاقا («لا تنهض لمقاومة الشر»[٢٦] هي المقولة الأكثر رسوخا في الأناجيل، ومفتاحها

---

(٢٦) يكتب تولستوي في «ديانتي»: إن المقطع الذي غدا بالنسبة لي مفتاحا

بمعنى ما)، و السعادة في السلام، وفي الرقة، وفي عدم *القدرة* على المعاداة. ماذا تعني «رسالة البشرى»؟ -لقد تم العثور على الحياة الحق، والحياة الخالدة-إنها لم تعد موعودة، إنها هنا، إنها فيكم: حياة في المحبة، في المحبة دون استثناء، دون إقصاء، دون مسافة. كل واحد ابن لله- فالمسيح لا يطالب بشيء لنفسه وحده، -أبناءً لله جميعاً يكون كلٌّ متساو مع كلٍّ... أن نجعل من يسوع بطلا!

وأي سوء فهم يكمن في عبارة «عبقري» أيضا! إن مجمل مفهومنا، أي مفهومنا الثقافي عن «العقل» ليس له من معنى في المحيط الثقافي الذي عاش داخله المسيح. وإذا ما تكلمنا بصرامة الفزيزلوجي، فإن عبارة أخرى مغايرة تماما ستكون في محلها هنا: عبارة أبله(*). نحن نعرف حالة حساسية مرضية تصاب بها حاسة اللمس وتجعلها تنفر من كل ملامسة، وتقشعر للمس كل

للكل كان ذلك الذي يرد في الجملتين ٣٨ و٣٩ من الإصحاح الخامس لإنجيل متى: «سمعتم أنه قيل عينٌ بعين وسنٌّ بسِنٍ وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرّ.» أنظر تعليق نيتشه في الفقرتين ٢٤٦ و ٢٤٧ من شذرات التركة (الأعمال الكاملة -طبعة الدراسات النقدية، المجلد ١٣/ ١١):

(٢٤٦): -عدم إبداء مقاومة «للشر». لكن ماذا يعني هذا إذن، إن كان المرء لا يؤمن لا بخير ولا بشر؟

(٢٤٧): -القانون القديم الذي يقاوم الشر ويكافئ الشر بالشر، والقانون الجديد الذي لا يكافئ ولا يقاوم.

(*) يستمد نيتشه هذا الرأي من تأثيرات قراءته لروايات دوستويفسكي كما سيعبر عن ذلك بصفة أوضح في الفقرة ٣٢. وكان قد عبر عن إعجابه العميق بكتاباته وتقديره لعبقرية دوستويفسكي في كتاب «غسق الأوثان»: تسكعات رجل غير موافق للعصر؛ الفقرة ٤٥.

شيء من مادة صلبة. لندفع بمثل هذا التمظهر الفزيولوجي إلى الحدود القصوى لمنطقه وسيتبين لنا ككراهية غريزية *لكل* واقع، وكهروب في «اللاملموس» وفي «ما لايدرك»، ونفور من كل قاعدة، ومن كل مفهوم للزمان والمكان، ومن كل ما هو صلب، وتقليد ومؤسسة وكنيسة، وكاتخاذ موطن في عالم لا يلامس تخومه أي ضرب من الواقع، مجرد عالم «باطني»، عالم «حقيقي»، عالم «خالد». . . . «إن ملكوت الله داخلكم»[٢٧] . . .

٣٠

الكراهية الغريزية للواقع: نتيجة حساسية مفرطة وقابلية للتأذي أصبحت تكره كل ملامسة، لأن كل ما يلمسها يثير لديها إحساسا حادا وعميقا.

الإقصاء الغريزي لكل كراهية، وكل عداوة، ولكل الحدود والمسافات التي تسكن المشاعر: نتيجة حساسية مفرطة وقابلية للتأذي تعيش كل مقاومة وكل وجوب مقاومة ككدر مرهق(أي كشيء مضر، كشيء *تصد* عنه غريزة البقاء)، ولا تعرف سعادة (متعة) إلا في الامتناع عن أية مقاومة ضد أي كان وأي شيء. لا الألم ولا الشر؛- فقط المحبة كآخر إمكانية للحياة. . .

تلك هما الحقيقتان البسيكولوجيتان اللتان تطورت على أساسهما تعاليم الخلاص. أسمي ذلك تطورا ساميا للمتعوية على

---

(٢٧) إنجيل لوقا؛ الإصحاح السابع عشر، ٢٠-٢١: «ولما سأله الفرّسيون متى يأتي ملكوت الله أجابهم وقال لا يأتي ملكوت الله بمراقبةٍ. ولا يقولون هوذا ههنا، أو هوذا هناك لأنْ ها ملكوت الله داخلكم.» (م)

قاعدة مرَضية. إن لها قرابة في ذلك بالأبيقورية، مذهب الخلاص في عصر الوثنية، مع فارق في الشحنة الحيوية اليونانية وقوة في الأعصاب. *أبيقور* كنموذج *للمنحط*؛ وقد كنت أول من أعتبره كذلك. -إن الخوف من الألم، بما في ذلك ما كان منه طفيفا للغاية، لا يمكن أن يفضي إلا إلى *ديانة محبة*...

٣١

كنت قد أعطيت مسبقا جوابي عن هذه المسألة. تفترض هذه الإجابة أنّ نموذج المخلّص لم يُحفظ لنا إلا في شكل مشوّه للغاية. لكنّ هذا التشويه يحمل في داخله الكثير من أوجه الاحتمال: ولأسباب عديدة لم يكن من الممكن لنموذج من هذا النوع أن يظل نقيا، كاملا، وسالما من الزيادات. لا بد أن المحيط الذي نشأ فيه هذا النمط الغريب قد ترك بصماته الخاصة على صورته، وأكثر منه التاريخ، ومصير الجماعات المسيحية الأولى: لقد خضع النموذج لاحقاً إلى زيادات بَعدية لا يمكن فهمها إلا من خلال مستلزمات الحرب والدعاية. إذ لا بد أن يكون ذلك العالم الغريب والمريض الذي تكشف لنا عنه الأناجيل-عالم يبدو طالعا من صلب الأعمال الروائية الروسية، كملتقى لمجمل حثالة المجتمع والأمراض العصبية والبلاهة «الصبيانية» كملتقى لمجمل حثالة المجتمع والأمراض العصبية والبلاهة «الصبيانية»[٢٨]- قد طبع ذلك النموذج بطابع الفجاجة:

(٢٨) إحالة ضمنية على روايات دوشتويفسكي الذي كان نيتشه كثير الإعجاب بكتاباته («الممسوسون»، «الأبله» على سبيل المثال). (م)

لقد كان على الحواريين الأوائل على وجه الخصوص أن يترجموا بفجاجتهم الخاصة عن كائن رجراج مكوّن من رموز غامضة تستعصي على الإدراك، حتى يستطيعوا أن يفهموا شيئا من كنهه، لأن ذلك النموذج لم يكن له أن يغدو *موجودا* بالنسبة إليهم إلا بعد إعادة صياغته في شكل معهود لديهم... النبي، والمسيح، وقاضي اليوم الآخر، والمعلّم الأخلاقي، وصاحب المعجزات، ويوحنا المعمدان- وجوه متعددة تعدد إمكانيات الخلط والإخفاق في التعرف على الشخص. ولا ينبغي بالنهاية أن نقلل من أهمية الخصوصية المميزة لكل توقير عظيم، أي كل توقير ذي منحى طائفي: إنه يعمد إلى طمس الملامح الأصلية، الملامح المحرجة والغريبة بصفة خاصة، وكل أنواع الحساسية المفرطة لدى الكائن الموقّر-*بل إنه لا يراها أصلا*. ولا يمكننا إلا أن نأسف لعدم وجود واحد من نوع دوستويفسكي بجوار هذا النموذج الأكثر أهمية من بين المنحطين، أعني بذلك واحدا قادرا على التقاط الجاذبية الأخاذة لذلك الخليط من المقدّس والمَرَضي والصبياني.

وجهة نظر أخيرة: من الممكن أن يكون هذا النموذج، كنموذج للمنحط، على نحو غير معهود من التعدد والتناقض: احتمال من هذا النوع ليس مستبعدا كليا. ومع ذلك فإن كل شيء يدعونا إلى عدم التسليم بهذا الأمر؛ ففي مثل هذه الحالة سيُفترض أن يكون النقل بالذات على مستوى خارق من الأمانة والموضوعية، في حين كل شيء يدفع إلى الاعتقاد بعكس ذلك. وفي الأثناء هناك تناقض شبيه بهوة تفصل بين داعية الجبل والبحر والبراري، الذي يبدو بهيأة بوذا فوق أرض غير هندية، وذلك

العدواني المتعصب، العدو اللدود للاهوتيين والقساوسة، الذي يحتفي به العقل الخبيث لرينان ويكرسه «المعلّم الكبير في مجال السخرية» (*'le grand maitre en ironie'*)(*)(٢٩). وأنا شخصيا لا أشك في أن ذلك الكم الذي لا يستهان به من المِرّة (ومن العقل أيضا) لم يُسكَب على شخص المعلّم إلا لاحقا من خلال حالة التهيج المرافقة لعمل الدعاية المسيحية: ونحن نعرف جيدا قلة ورع كل ذوي العصبية الطائفية في استعمال شخصية معلّمهم لتدبّر *مدائح* لتمجيد ذاتهم. وعندما كانت الطائفة الأولى بحاجة في مواجهة اللاهوتيين إلى لاهوتي ماكر ذي خبث حاذق، ساخط مرعد، وقدرة على العراك وعلى المقاضاة، ابتدعت لنفسها «ربّا» مناسبا لحاجياتها، كما لم تتردد في أن تضع على لسانه أفكارا لا إنجيلية بالمرة، غدت لاغنى لها عنها اليوم: «قيام المسيح»،

(*) بالفرنسية في النص الأصلي.

(٢٩) أنظر إرنست رينان «حياة يسوع» (بالفرنسية) باريس ١٨٦٣. في دفاتر نيتشه الكثير من المقتطفات من كتاب رينان مرفوقة بتعليقاته، نجدها في المجلد ١٣ / ١١من الأعمال الكاملة (شذرات التركة النيتشوية). نورد هنا على سبيل المثال: -رينان I, 346: «كانت سخرياته الرائعة واستفزازاته الخبيثة تضرب دوما في العمق. آثار أبدية تظل تنزف بها الجراح. إن قميص نيسوس للمهزلة الدائمة الذي ما زال اليهودي، حفيد الفّريسيين يجره أشلاءه وراءه منذ ثمانية عشر قرنا، إنما يسوع هو الذي نسجه له بحيلة إلهية مدبّرة. وكروائع من سخرية راقية ما تزال سهامه مرسومة بخطوط من نار على لحم المرائي وذي التقي المزيّف. سهام لا شبيه لها، شهام جديرة بابن إله. غن إله وحده هو القادر على القتل بهذه الطريقة. سقراط وموليير لا يلامسان غير الجلدة. أما هو فإنه يبلغ أعماق العظام بناره وسخطه». (م)

و«يوم الحساب»، وما إلى ذلك من شتى أنواع الأماني والوعود الدنيوية. (٣٠)-

٣٢

مرة أخرى، لا أقبل بأن يُقحم طابع المتعصب داخل شخصية المخلّص: وعبارة "impérieux" («القاهر») التي يستعملها رينان تكفي لوحدها *لنقض وإلغاء* ذلك النموذج(٣١). فـ«رسالة البشرى» تعني بالضبط انتفاء كل تناقض، وأن ملكوت السماء ملك لكل *الأبناء*؛ والإيمان الذي يعلن عن نفسه هنا ليس إيمانا محصّلا من خلال الصراع، إنه فقط هنا، وهو قائم منذ الأزل، شيء شبيه بصبيانية مترسبة في الروح. وإن حالة المراهقة(*) المتأخرة والتي لم تُتم صيرورة تكوُّنَها داخل الكيان كظاهرة عرضية للانحطاط أمر معروف لدى الفزيولوجيين على الأقل. -إن إيمانا من هذا النوع لا يسخط، ولا يلوم، ولايدافع عن نفسه: لم يجئ ليلقي «سيفا»(٣٢)،- وهو لا يساوره حتى مجرد التفكير في أنه قد يصبح قادرا على التفرقة في يوم ما. لا

---

(٣٠) أنظر دفتر شذرات التركة، المجلد ١٣/ ١١ الشذرة رقم ٣٦٩ تحت عنوان: عن نمط شخصية يسوع .(م)

(٣١) المجلد ١٣/ ١١؛ الشذرة ٣٦٨: «يخطئ المرء عندما يتصور عنصر تعصب يضفيه على شخصية يسوع. . .«قاهر»-رينان.(م)

(*) يستقي نيتشه نموذج «المراهق» و«الأبله» من مؤلفات دوستويفسكي كصورة نمطية للتمرد الصبياني؛ نصف بريء، نصف أبله.

(٣٢) على عكس ما يرد في إنجيل متى: الإصحاح العاشر/ ٣٤: «لا تظنوا أني جئت لأُلقي سلامًا على الأرض. ما جئتُ لأُلقي سلامًا، بل سيفاً.»

يبرهن عن نفسه لا من خلال معجزات ولا من خلال وعود وجزاء، وأقل من ذلك «من خلال كتاب»: إنه هو نفسه المعجزة في كل لحظة، وهو في نفسه الثواب والبرهان و«ملكوت الله». هذا الإيمان لا يقبل بصياغة أيضا، -إنه *يحيا* ويرفض كل الصيغ. ومن المؤكد أن مصادفات المحيط واللغة تحدد مسبقا تشكّل دائرة بعينها من المفاهيم: لم تكن المسيحية البدئية تعالج غير مفاهيم يهودية ساميّة (والخبز والشراب الذي يتناول في العشاء السري إحدى هذه المفاهيم، تلك الفكرة التي تم استعمالها على نحو شنيع من قبل الكنيسة، ككل ما هو يهودي). لكن لنحاذر من أن نرى في ذلك شيئا آخر غير لغة رموز، ومنظومة سيميائية، وتعلة لصياغة الأمثال. والشرط الأولي لجعل هذا اللاواقعي يستطيع الكلام هو أن لا تؤخذ كلمة واحدة من كلماته على ظاهر لفظها. ولو أنه كان بين الهنود لاستعمل مفاهيم سانخيا[٣٣]، ولاستعمل مفاهيم لاوتسي لو كان بين صينيين -دون أن يشعر بأي فرق.- ولعله سيكون بإمكان المرء، مع شيء من التسامح اللغوي، أن يسمّيه «عقلا حرا» -فهو لا يعير اهتماما لكل ما هو ثابت: الكلمة *تقتل*، وكل ما هو ثابت *يقتل*. فالفكرة، والتجربة التي هي «الحياة» كما يعرفها هو وحده، تنفر لديه من كل كلمة، وصيغة، وقانون، وإيمان، وعقيدة[٣٤]. إنه لا يتكلم

---

(٣٣) سانخيا: واحد من الست مذاهب الأصولية الهندوسية التي تعترف بسلطة الفيدا. ويعزى تأسيس هذا المذهب الفلسفي القديم إلى حكيم أسطوري يدعى كابيلا. لكن أول عرض لها قد قدمة إيسفارا كريشنا. (م)

(٣٤) في الشذرة ٣٦٨ من المجلد ١٣ / ١١ ترد هذه الجملة في الصياغة التالية:

إلا عن الباطن العميق: «حياة» أو «حقيقة» أو «نور» هي كلمته عن الباطن، -وكل ما عدا ذلك، مجمل الحقيقة، ومجمل الطبيعة، واللغة نفسها لا قيمة لها لديه إلا في ما تمثله كرمز وكمثَل. وإنه لا ينبغي على المرء بأية حال أن يخطئ في هذا الموضع مهما كانت قوة الإغراءات التي تنطوي عليها الأحكام المسبقة المسيحية، أعني بذلك *الكنيسية*: إن منظومةً رمزيةً بامتياز من هذا النوع تقع خارج كل ديانة، وكل مفاهيم العبادة، وكل معرفة، وكل سياسة، وكل بسيكولوجيا، وكل الكتب، وكل فن- إن «علمه» هو بالضبط *الحمق*(*) *الصرف* الذي يجهل أن شيئا من هذا القبيل موجود أصلا. وليس لديه أي علم حتى بالسماع عن *الثقافة*، ولا حاجة له بمحاربتها، -إنه لا ينفيها... وكذلك الشأن بالنسبة *للدولة*، وبالنسبة لكل نظام مدني واجتماعي، وبالنسبة *للعمل*، والحرب-ولم يكن لديه من سبب كي ينفي «الدنيا»، فهو لم يكن يعرف شيئا من المفهوم الكنسي عن «الدنيا»... وبالتالي فإن *النفي* هو بالضبط الأمر المستحيل بالنسبة إليه. خال أيضا من الجدل، وخال من مجرد تصور أن إيمانا، أو «حقيقة» يمكن إقامة البرهان عليها بالحجج (براهينه «أنوار» باطنية، ومشاعر متعة باطنية، وأفعال استجابة إثباتية للذات، وحشد من «دلائل الطاقة»). إن تعليما من هذا النوع لا

«المسيح كـ«عقل حر»: إنه لا يعير اهتماما لكل ما هو ثابت (كلمة، صيغة، كنيسة، قانون، معتقد)، «كل ماهو ثابت *يقتل*...» ولا يؤمن إلا بالحياة وبما هو حيّ- وبما «يكون»، لا بما سيكون...(م)

(*) نموذج «الأبله» (دوستويفسكي)

يستطيع أيضا أن يناقِض، فهو لا يدرك أن هناك، أو يمكن أن تكون هناك تعاليم أخرى مغايرة، ولا يستطيع البتة أن يتصور وجود حكم مناقض... وحيثما يلتقي به لا يسعه إلا أن يحزن عن شفقة عميقة لذلك «العماء»، -ذلك أنه يرى «النور»، لكنه لا يقوم بأي اعتراض...

٣٣(٣٥)

تخلو مجمل البسيكولوجيا «الإنجيلية» من مفهوم الذنب والعقاب، وكذلك من مفهوم الثواب. «الخطيئة» وكل ما يشكل مسافة في العلاقة بين الله والإنسان تجد نفسها ملغاة؛ -*إنها* بحق *«رسالة بشرى»*. لم تعد السعادة شيئا موعودا، ولا هي مرهونة بشروط: إنها الواقع *الوحيد*- أما ما عدا ذلك فرموز للحديث عنها.

تنعكس نتائج هذا في ممارسة جديدة، هي الممارسة الإنجيلية الحقيقية. فالمسيحي(*) لا يتميز بـ«إيمان»؛ المسيحي

(٣٥) هذا المقطع مستوحى في مجمله تقريبا من «عظة الجبل». أنظر متّى الإصحاح الخامس.

(*) ما الذي (أو من الذي) يعنيه نيتشه بالمسيحي هنا حتى لأنه يبدو كما لو أنه يناقض نفسه؟ هل هو المسيحي عامة؟ أي كما رسمت ملامحه الكنيسة؟ أم هو صورة نموذجية للمسيحي بحسب رؤية وسلوك يسوع؟ أم هو فقط يسوع نفسه ولا أحد غيره؟ خاصة وقد اتضح لنا من خلال الفقرة السابقة أن لنيتشه تصور مغاير لكل التصورات السائدة عن يسوع، صورة مناقضة تماما لنموذج المسيحي كما يرد غي الأناجيل، وكما رسخته الكنيسة في ما بعد.

يفعل، ويجسد اختلافه من خلال ممارسة مغايرة. لا يقابل الشر الذي يلاقيه بالمقاومة، لا بالكلمة ولا بالقلب؛ لا يقيم فرقا بين الأهلي والغريب، بين اليهودي وغير اليهودي («القريب» هو في الحقيقة شريكه في العقيدة، اليهودي)؛ لا يسخط على أحد، ولا يحتقر أحدا؛ لا يحضر في المحاكم، ولا يقبل بأن يُدعى في شهادة لديها («لا تحلف»)[٣٦]؛ لا يُقدم على طلاق زوجته في أي حال من الأحوال، ولا حتى في حالة خيانة ثابتة الأدلة[٣٧]. -كل هذا يمثل في أساسه قانونا واحدا، وكله نتيجة لغريزة واحدة. -

لم تكن حياة المخلّص شيئا آخر غير هذه الممارسة، - ولم يكن موته أيضا شيئا آخر.. .لم يعد بحاجة لأي قانون، أو أي طقس في علاقته بالله - ولا حتى الصلاة. لقد قطع مع مجمل تعاليم التوبة والغفران؛ لا يعرف إلا نوعية *السلوك* الحياتي الذي يجعل المرء يشعر بنفسه في كل لحظة «مقدسا»، «سعيدا»، «إنجيليا»، «إبن الله». لا «الكفارة» ولا «صلاة طلب الغفران» هي الطرق المؤدية إلى الله؛ إن *الممارسة* الإنجيلية وحدها هي التي تقود إلى الله، بل هي «الله». - أما ما تم *إلغاؤه* من قبل الإنجيل فهي اليهودية القائمة على مفاهيم «الخطيئة»، و«مغفرة الخطايا»، و«الإيمان»، و«الخلاص عن طريق الإيمان»؛ -كل تعاليم الكنيسة

---

(٣٦) متّى ٥/ ٣٣-٣٧ (م)

(٣٧) قارن مع متّى ٥/ ٣٢: «وأما أنا فأقول لكم إنّ من طلّق امرأته إلا لعلّة الزنى يجعلها تزنى...» ويبدو ان نيتشه قد تغافل هنا عمدا عن الاستثناء الذي يرد في مقولة متى، لسبب أو لآخر! (م)

اليهودية قد وجدت نفسها منفية في «رسالة البشرى».

إن الغريزة العميقة هي التي تحدد للإنسان كيف ينبغي عليه أن يعيش كي يشعر بنفسه في «ملكوت السماوات»، وكي يشعر بنفسه خالدا، بينما لا يستطيع المرء البتة أن «يشعر بنفسه في ملكوت السماوات» مع أي نوع آخر من الممارسة؛ ذلك وحده هو الواقع السيكولوجي «للخلاص».[٣٨] - تحوّل جديد، وليس عقيدة جديدة...

٣٤

إن كنت أفهم شيئا عن هذا المرمّز الكبير، فسيكون ما أفهمه هو أنه لم يكن يأخذ غير الوقائع *الباطنية* كـ«حقائق»، وأن كل ما عدا ذلك، أي كل ما هو طبيعي، وزمني ومكاني وتاريخي لا يمثُل في فهمه إلا كرموز، وكتعلة لأمثال. أما مفهوم «إبن الإنسان» فهو لا يمثل شخصا ملموسا ينتمي إلى التاريخ، شيئا فرديا، حادثا وعارضا، بل واقعا «أبديا» ورمزا بسيكولوجيا منفصلا عن المفهوم الزمني. والأمر نفسه ينطبق على «إلهِ» ذلك المرمّز النموذجي، وعلى «ملكوت الله»، و«ملكوت السماوات» و«أبويّة الله». وليس هناك ما هو أقل مسيحية من *فجاجات التصور الكنيسي* عن إله مشخْصن، وعن «ملكوت للّه» مستنسخا من «ملكوت سماوات» واقعة في الماوراء، وعن «إبن الله» الذي

---

(٣٨) قارن مع الشذرة ٣٥٧ من المجلد ١٣/ ١١: «...ذلك وحده هو الواقع البسيكولوجي للمسيحية.»

يمثل *الشخص الثاني* في الثالوث المقدس. كل هذا -ولتغفروا لي العبارة- بمثابة *الصفعة* على الوجه؛- وأيّ وجه إذن! وجه الإنجيل: صلافة *تاريخية* في مجال الاستهزاء بالرمز... ومع ذلك فالأمر جلي واضح-لكن ليس لكل عين ينبغي علي أن أقول- في ما يتعلق بما يشير إليه رمزا «الأب» و«الإبن». فعبارة الإبن تعبر عن *ولـوج* ذلك الشعور العام بتجلّي الأشياء كلها (السعادة)، أما عبارة «الأب» فهي *ذلك الشعور نفسه*، شعور الخلود، والكمال. - وإنني لأخجل من التذكير بما فعلت الكنيسة بهذه المنظومة الرمزية: ألم تنصب قصة أمفيتريون على عتبة «العقيدة» المسيحية؟ وتجعل من «الحبَل بلا دنس» معتقدا فوق ذلك؟... *لكنها بذلك قد دنّست الحبَل*. -

«إن ملكوت السماء» حال يدرك بالقلب، وليست شيئا واقعا «فوق الأرض»، أو يأتي «بعد الموت». وفكرة الموت الطبيعي بكليتها لا مكان لها داخل الإنجيل: فالموت ليس جسرا، ولا هو عبور؛ إنه غائب، لأنه ينتمي إلى عالم آخر، عالم ظاهري فقط ليس له من صلوحية إلا كعلامة. و«ساعة الموت» ليست فكرة مسيحية؛ -فـ«الساعة»، والزمن، والحياة الفزيولوجية وأزماتها لا توجد بالنسبة لمعلّم «رسالة البشرى»... و«ملكوت الله» ليس شيئا يمكن أن ننتظره؛ فلا أمس له ولا بعد غد، ولن يأتي بعد «ألف سنة»[٣٩]- إنما هي تجربة تعاش بالقلب؛ وهي في كل مكان، ولا توجد في مكان...

---

(٣٩) رؤيا يوحنا؛ ٢٠/ ٤.

٣٥

ذلك «المبشر» مات كما عاش، وكما كان يعلّم، - *ليس* من أجل «تخليص الإنسانية»، بل من أجل أن يعلّم كيف ينبغي على المرء أن يعيش. *والممارسة* هي تلك التي تركها للناس: سلوكه أمام القضاة، وأمام الجلادين، وأمام المدّعين عليه، وأمام كل ضرب من الثلب والهزء، -سلوكه وهو على *الصليب*. لايقاوم، ولا يدافع عن حقه، ولا يحرك ساكنا لدرء المصاب الجلل، بل إنه يستدعيه... ويصلي، ويتألم، ويحب مع ذلك أولئك الذين كانوا يسيئون إليه... < والكلمات التي قالها للص الذي كان إلى جانبه فوق الصليب تحتوي الإنجيل بأكمله. «لقد كان بحق إنسانا مقدسا، «إبناً لله»، قال اللص.[٤٠] «إن كان شعورك

(٤٠) يبدو أن هناك خلط قد وقع لدى نيتشه بين ما قاله أحد اللصين اللذين كانا على الصليب إلى جانب يسوع وما قاله قائد المئة بعد أن أسلم يسوع الروح وهو على الصليب كما يرد في الأناجيل:
-لوقا؛ الإصحاح ٢٣ / ٤١-٤٢: «أما نحن (قال أحد اللصيْن ردا على صاحبه الذي كان يسخر من يسوع ويعيّره) فبعدلٍ لأننا ننال استحقاق ما فعلنا. وأما هذا فلم يفعل شيئا ليس في محلّه. ثم قال ليسوع أذكرني ياربّ متى جئتَ في ملكوتك فقال له يسوع الحقَّ أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس.»
أما القولة التي يضعها نيتشه على لسان اللص فهكذا ترد روايتها في نفس الإصحاح (٤٥-٤٧): *«ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا أبتاه في يديك أستودع روحي. ولما قال هذا أسلم الروحَ. فلما رأى قائد المئة ما كان مجّدَ الله قائلا بالحقيقة كان هذا الإنسان بارّا.»* أما إنجيل متى فلا يورد مثل هذا الكلام، بل يروي أن اللصيّن كانا يعيّرانه كما كان يفعل الشعب من حولهما. أنظر الإصحاح السابع والعشرون ٣٩-٤٤: *«وكان الجتازون*

هكذا، فأنت في الجنة، وأنت أيضا إبناً لله»، أجابه المخلّص >[٤١]. . . لا دفاع عن النفس، لا غضب، لا إلقاء بالذنب على أحد. . . ولا مقاومة للشرير أيضا. -بل محبته. . .

٣٦

نحن فقط، نحن العقول المتحررة، نملك الشرط الذي يخولنا من فهم ما أساءت فهمه تسعة عشر قرنا من الزمن: النزاهة المتحولة غريزة وولعا، والتي تحارب «الأكذوبة المقدسة» أكثر من أي نوع آخر من الكذب. . . كان الناس بعيدين كل البعد عن حياديّتنا الحذرة المرهفة، وعن تلك التربية العقلية التي يعود الفضل إليها وحدها في جعلنا نستطيع أن نحدس أشياء على غاية

يجدّفون عليه وهم يهزّون رؤوسهم قائلين يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلّص نفسك. إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب(. . .) وبذلك أيضا كان اللصان اللذان صلبا معه يعيّرانه.» وكذلك يروي إنجيل مرقس أيضا (١٥/ ٢١-٢٢).

(٤١) هذا المقطع الذي وضعناه بين المعقفين < . . > مفقود في الطبعات السابقة على طبعة الدراسة النقدية التي حققها كوللي ومونتيناري. وهي بالتالي مفقودة في الترجمات الفرنسية (هنري ألبرت مثلا) التي لم تعتمد هذه الطبعة. ونجد نصا أكثر دقة لما يقول نيتشه أنه كلام يسوع الذي كلم به اللص، في المجلد ١٣/ ١١ الشذرة ٣٧٧: «الكلمات التي كلم بها اللص لم تكن سوى هذه: إن كنت تحس بأن هذا حق أن لاتقاوم ولالا تغضب ولا تلقي بالمسؤولية على أحد، بل أن تتألم بالأحرى وتشفق على الآخرين، وتغفر وتصلي من أجل هؤلاء الذين يضطهدوننا ويقتلوننا، فإنك تكون بذلك قد حصلت على الأمر الضروري: سلام الروح- وهكذا تكون في الجنة.»

من البعد واللطافة: لقد ظل أولئك على مر العصور يصرون بأنانيّة وقِحة على أن لا يولوا اعتبارا إلا لمصلحتهم *الخاصة*؛ وعلى نقيض الإنجيل أسسوا *الكنيسة*(٤٢)...

كل من سيبحث عن دلائل تفيد بأن قداسة ساخرة هي التي تحرك الخيوط من داخل كواليس المسرحية الكونية الكبرى سيعثر بالتأكيد على برهان ليس بالهين في *نقطة الاستفهام الفظيعة* التي تسمى مسيحية... أن نرى الإنسانية راكعة أمام نقيض ما كان يمثّل الأصل والمعنى الإنجيلي *والحق* الإنجيلي، وأن تكون قد كرست وأعلنت في فكرة «الكنيسة» قداسةَ ما كان «المبشّر» يعدّه شيئا واقعا *خلفه*، وأمرا دون *منزلته*؛- ضرب من سخرية *التاريخ الكوني* سيكون علينا أن نبحث دون جدوى عن شكل يمكن أن يضاهيه سخريةً. --

٣٧

عصرنا الحاضر فخور بحسه التاريخي؛ فكيف استطاع إذن أن يمنح مصداقية للسخافة القائلة بأن *خرافة المنقذ وصانع المعجزات* هي التي تأسست عليها بدايات المسيحية، وأن كل ما هو روحاني ورمزي ليس سوى تطورات لاحقة طرأت عليها في

---

(٤٢) في الشذرة ٣٥٨ من المجلد ١٣/ ١١ نقرأ: «أصبح قرننا التاسع عشر أخيرا يمتلك الشرط الضروري لفهم ما ظل يساء فهمه لمدة تسعة عشر قرنا: المسيحية... لقد كان الناس بعيدين كل البعد عن ذلك الحياد المحبب والنزيه. لقد ظل الناس يعانون من عماء أناني مخجل، طفيليين، وقحين متخذين على الدوام هيأة الإجلال الأكثر خضوعا.»

زمن متأخر؟ على العكس من ذلك: إن تاريخ المسيحية -بدء من الموت فوق الصليب- هو تاريخ تطور سوء فهم أكثر فأكثر فجاجةً قد طال المنظومة الرمزية *الأصلية*. فمع كل توسع جديد للمسيحية باتجاه جماهير أوسع وأكثر بدائية، وأقل قدرة على تمثّل الشروط التي أفرزتها، كانت هناك حاجة متزايدة لـتبسيط المسيحية وتهميجها، -هكذا امتصت تعاليمَ وطقوسَ كل المعتقدات *السردابية* في الإمبراطورية الرومانية، وتجرعت سخافة شتى أنواع العقول المريضة. لقد كان قدر المسيحية في ضرورة أن تغدو عقيدتها نفسها مريضة ووضيعة وفجة بقدر مرض ووضاعة وفجاجة الحاجات التي كان عليها أن تنهض لتلبيتها. وأخيرا تكثفت خلاصة الهمجيات المريضة كقوة هي نفسها في شكل الكنيسة، شكل العداوة القاتلة تجاه كل نزاهة، وكل سموّ للروح، وكل تربية عقلية، وكل إنسانية صريحة وخيّرة. القيم المسيحية كمقابل للقيم *النبيلة*، إننا، نحن العقول *المتحررة*، أول من أعاد إقامة هذه الثنائية القيميّة الأعظم من بين كل الثنائيات!--

٣٨

زفرة لا أريد أن أكتمها في هذا الموقع. هناك أيام أجد نفسي فيها ممزقا بشعور قاتم، أكثر سوادا من الكآبة الأكثر سوادا: *احتقار الإنسان*. وحتى لا أدع مجالا للشك في نوعية *ما الذي* أحتقر عندما أحتقر: إن إنسان الحاضر هو الإنسان الذي أجدني أتحمل شؤم معاصرتي له. إنسان اليوم- إنني أختنق

بأنفاسه النجسة. . . أما تجاه الماضي فإنني، وككل العارفين، على قدر كبير من التسامح، أي من *السخاء* في ضبط النفس: أمضي بحذر قاتم عبر مصحة الأمراض العقلية الكونية لآلاف السنين، سواء سُمي ذلك «مسيحية»، أو«عقيدة مسيحية»، أو «كنيسة مسيحية»، وأحترس من أن ألقي على الإنسان مسؤولية مرضه العقلي. لكنّ شعوري سرعان ما ينقلب وينفجر حالما ألج عتبة الزمن الحديث، زمننا هذا. فزمننا *عالِمٌ*، وما كان بالأمس مريضا فحسب، هو اليوم دنيء، -دناءة أن يكون المرء مسيحيا في يومنا هذا. *من هنا يبدأ قرفي*. -أنظر من حولي، ولا أرى شيئا مما كان يدعى في ما مضى «حقيقة»، ونحن لم نعد نتحمل أن نسمع قسا يذكر عبارة «حقيقة»، ولو بطرف اللسان. وحتى لو أننا لم نتمسك إلا بمقدار متواضع جدا من الحرص على النزاهة، فإنه سيكون *علينا* أن نعرف اليوم أن كل لاهوتي وقس وبابّا لا يخطئ فحسب مع كل جملة ينطق بها، بل يكذب،- وأنه لم يعد بيده أن يكذب عن «براءة» أو عن «جهل». والقس يعرف هو أيضا، كما يعرف كل إنسان، أنه لم يعد هناك من «إله»، ولا وجود لـ«خطيئة» و«مخلّص»، وأن «الإرادة الحرة» و«النظام الأخلاقي للحياة» *أكاذيب*: -فالجدية والنزوع العميق للعقل إلى التغلب على الذات لم تعد تسمح لأحد بأن يكون جاهلا بهذا الصدد. . . كل مفاهيم الكنيسة غدت معروفة على وجهها الحقيقي الآن، أي كأخبث ما يوجد من تزوير بهدف تجريد الطبيعة والقيم الطبيعية من كل قيمة؛ والقس نفسه قد غدا معروفا على وجهه الحقيقي، كأخطر نوع طفيليّ، والرتيلاء السامة

الحقيقية التي تهدد الحياة... نحن نعرف، وضميرنا *يعرف* اليوم، أي قيمة لتلك الابتكارات الفظيعة التي ابتدعها الكهنة والكنيسة، *وأي غرض كانت تخدم*، ابتكاراتٌ بلغ معها التدنيس الذاتي للإنسانية حدا غدا مظهرها معه مثيرا للقرف- مفاهيم «الآخرة» و «يوم الحساب» و«خلود الروح»، و«الروح» نفسها؛ إنها أدوات تعذيب، إنها نظم شناعات بواسطتها استطاع القس أن يصبح سيدا، أن يظل سيدا... الكل يعرف ذلك: *ومع ذلك يظل كل شيء على ما كان عليه*[٤٣]. أين ذهب ذلك الإحساس الأخير بالاستقامة، وباحترام النفس كي نرى حتى رجال دولتنا، وهم في العادة نوع من الرجال المتحررين ولا مسيحيين كليا على أرض الممارسة، يدعون أنفسهم اليوم مسيحيين ويؤمّون طقوس العشاء السري؟ أمير شاب على رأس جيوشه، بأبهة تعبر عن مدى أنانية وغرور شعبه، -لكنه يعلن عن مسيحيته دون أدنى شعور بالحياء![٤٤]... ماالذي تنفيه المسيحية إذن؟ وأي شيء

---

(٤٣) من «ونحن لم نعد نتحمل...»حتى هذا الموضع، يرد هذا المقطع في دفتر المسودات المرتب تحت شفرة W II, 147-148 كالآتي: «كل يعرف، وكل بإمكانه أن يعرف أنه ليس هناك من إله ولا خطيئة ولا مخلّص ولا «إرادة حرة» ولا نظام أخلاقي للكون، وأن القس هو أرذل نوع من بين جميع الطفيليات، وأن المسيحية هي إرادة العدم، إرادة الانحطاط، وإرادة التدنيس الذاتي للإنسانية، وأن الآخرة، وخلود الروح، والروح نفسها قد غدت أكاذيب بائسة. ومع ذلك فإن الأمور ما تزال على ماكانت عليه؛ وبالذات لأن كل شيء قد غدا جديدا وحديثا، فإن بقاء الأمور على ما كانت عليه يغدو مثارا للاحتقار.»

(٤٤) التلميح هنا إلى بيسمارك.

يعني «دنيا» لديها؟ أن يكون المرء جنديا، أن يكون المرء قاضيا، وأن يكون وطنيا؛ أن يدافع المرء عن نفسه؛ أن يتمسك بشرفه؛ أن يريد مصلحته، وأن يكون *معتزا* بنفسه... كل ممارسة من كل لحظة، وكل غريزة، وكل تقييم يتحول عملا، هي اليوم مناقضة للمسيحية: أيَّ مِسخٍ مزوِّر ينبغي أن يكون إنسان اليوم كي لا *يخجل* من أن يظل مع ذلك يدعو نفسه مسيحيا!...

٣٩

أعود إلى الوراء، وأروي لكم القصة *الحقيقية* للمسيحية. - عبارة «مسيحية» هي في حد ذاتها سوء فهم، إذ في الحقيقة لم يكن هناك سوى مسيح واحد، وقد مات فوق الصليب. لقد *مات* «الإنجيل» فوق الصليب. وما سيدعى منذ تلك اللحظة «إنجيلا» كان من البداية النقيض لما عاشه المسيح: «رسالة شؤم»، *إنجيلا مضادا*. وإنه لمن الخطأ حد الحمق أن نرى في «إيمان»، كالإيمان بالخلاص عن طريق المسيح على سبيل المثال، العلامة المميزة للمسيحي: فالممارسة المسيحية، أي الحياة *كما عاشها* ذلك الذي مات فوق الصليب، هي وحدها التي يصح أن نسميها مسيحية... واليوم أيضا ما تزال *مثل هذه الحياة* ممكنة، بل وضرورية بالنسبة لنوع محدد من الناس: فالمسيحية الحقيقية، المسيحية البدئية ستظل أمرا ممكنا في كل زمن... *ليس* إيمانا، بل فعلا، والكثيرَ من الإمساك عن الفعل على وجه الخصوص، *وجودا* مغايرا...

إن حالات الوعي، وأيَّ إيمان، كالإيمان بأن شيئا ما حقيقة

مثلا هي، -كل خبير نفساني يعرف ذلك- أشياء لا قيمة لها، ومن درجة خامسة مقارنة بقيمة الغرائز. وبعبارة أكثر صرامة: إن مجمل فكرة السببية الروحية خاطئة. وإن اختزال مسيحية شخص ما، والواقع المسيحيّ في اعتقادٍ بصحة هذا الأمر أو ذاك، وفي مجرد ظاهرة وعي، إنما يعني نفي المسيحية. *وفي الواقع لم يكن هناك من مسيحيّين قط*. و«المسيحي»، أي ذاك الذي ظل لألفي سنة يسمي نفسه مسيحيّا، هو مجرد سوء فهم بسيكولوجي للذات. وإذا ما نظرنا بأكثر دقة، فسنجد أن الغرائز وحدها *-وأي غرائز!-* هي التي تهيمن عليه، بالرغم من الإيمان. ولم يكن «الإيمان» على مر العصور، لدى لوثر مثلا، سوى عباءة، وتعلة، وستارة تتحرك وراءها لعبة الغرائز، - عماء ماكر تجاه سيطرة نوع بعينه من الغرائز... «الإيمان»، ذلك ما سميته بـ*المكر* المسيحي الحقيقي؛ كانوا يتكلمون دوما عن «إيمان»، وكانوا لا يعملون إلا بدافع من الغرائز... ليس هناك في عالم التصورات المسيحية من شيء يلامس الواقع ولو بصفة عابرة؛ بل إننا نلمس في غريزة الحقد على كل ما هو واقعٍ العنصرَ المحرك، والمحرك الوحيد المتأصل في عمق المسيحية. ماذا ينتج عن ذلك؟ ينتج عن ذلك أن الخطأ متجذر في المجال البسيكولوجي أيضا، يعني أنه محدِّد للوجود، أي *جوهرا*. لنحذف فكرة *واحدة* من هنا، ولنضع حقيقة واحدة مكانها، وإذا المسيحية بكليتها تتهاوى إلى عدم! تظل تلك الواقعة الأكثر غرابة من بين الوقائع التاريخية، منظورا إليها من فوق، ديانة ليست محددة بالأخطاء فحسب، بل على درجة من الابتكار وحتى من العبقرية فقط في ابتداع الأخطاء

الأكثر تسميما للقلب والحياة،- مشهد فرجوي *للآلهة*، لتلك الآلهة والفلاسفة في الآن نفسه، من أولئك الذين التقيت بهم مثلا في محادثات ناكسوس الشهيرة(٤٥). وفي اللحظة التي يفارقهم فيها القرف (ويفارقنا نحن أيضا)، سيغدون ممتنين لتلك الفرجة التي يقدمها لهم المسيحي: وعندها قد يغدو هذا الكوكب الصغير المسكين الذي يسمى أرضا، ربما بفضل هذه الحالة الغريبة لوحدها، جديرا بنظرة إلهية، وباهتمام إلهي... فلا نقلّلنّ من شأن المسيحي: فالمسيحي، في زيفه الذي يلامس حدود البراءة، أرقى بكثير من القرد،- في ما يتعلق بالمسيحي تصبح نظريةُ أصولٍ معروفةٍ(٤٦) مجرد ملاطفة...

٤٠

لقد تحدد مصير المسيحية لحظة الموت: كان معلقا على «الصليب»... لدى موت يسوع فقط، ذلك الموت الشائن

---

(٤٥) إشارة إلى اللقاء الذي جمع بين أريادني وديونيزوس في جزيرة ناكسوس اليونانية في بحر إيجة. وهناك روايات مختلفة حول قصة أريادني و ديونيزوس ، وتيوزويس الذي قاتل المينوتورس في كريتة وساعدته أريادنة التي وقعت في حبه على الخروج من المتاهة. ثم تزوجها واصطحبته في طريق عودته إلى أثينا. لكنه تركها نائمة في جزيرة ناكسوس مفضلا عليها حب أخته فيدرا، كما تقول بعض الروايات، أو لأن الآلهة قد أشارت عليه بذلك ححتى يتمكن ديونيزوس من الزواج بها ثم يأخذها إلى ليمنوس بلاد الآلهة. بينما تؤكد روايات أخرى أن ديونيزوس هو الذي أمر أرتيميس بأن تقتلها.

(٤٦) إشارة إلى نظرية تطور الأجناس لداروين(م)

والمفاجئ، وفقط مع الصليب، الذي كان شيئا يُخصّ به سفلة الناس عادة، -تلك المفارقة الشنيعة وحدها هي التي وضعت الحواريين وجها لوجه مع ذلك اللغز الحقيقي: «*ترى من كان؟ ترى ماذا كان؟*»- يمكننا أن نفهم بسهولة تلك الحالة التي وجد الحواريون أنفسهم مقحمين داخلها؛ الانفعال العميق وإحساس المهانة، والتوجس من أن يتحوّل ذلك الموت إلى دحض لقضيتهم: «لكن، لماذا تمت الأمور على هذا النحو بالذات؟» - ههنا سيغدو ضروريا أن يكون لكل شيء موجب، معنى وسببا معقولا، سببا معقولا من درجة أولى: ذلك أن محبة الحواريّ لا تعترف بأية صدفة. الآن فقط ستتسع الهوة: «من الذي قتله؟، من كان عدوّه الطبيعي؟»- مثل التماعة برق برز ذلك السؤال. والجواب: إنها اليهودية *السائدة* وطبقتها المهيمنة. سيشعر الأتباع بأنفسهم منذ تلك اللحظة في موقع المتمرد على النظام القائم، وسيتم فهم يسوع بعديّا ضمن منظور *المتمرد على النظام القائم*. إلى حد تلك اللحظة كانت *تنقص* صورتَه تلك الملامح القتالية، وملامح المناقَضة في القول والمناقَضة في الفعل؛ بل أكثر من ذلك، كان يمثل الوجه النقيض لتلك الصورة. من الواضح أن الطائفة الصغيرة *لم تفهم* الأمر الأساسي: طابع النموذج في تلك الطريقة التي مات بها، والحرية، والسمو على كل مشاعر الضغينة؛ كان ذلك علامة على مدى قلة فهمهم له عموما! فالمسيح لم يكن يريد شيئا آخر من وراء موته سوى وضع تعاليمه موضع التجربة على محكّ أعسر الاختبارات... لكن حوارييه كانوا أبعد ما يكون عن أن *يغفروا* ذلك الموت- الأمر الذي كان

من شأنه أن يغدو سلوكا مسيحيا بالمعنى السامي للعبارة-، أو أن يقدموا *أنفسهم* لموت مشابه في كنف سكينة روحية عذبة ورقيقة. . . لكن الشعور الأقل إنجيلية، رغبة *الانتقام*، هو الذي كانت له الغلبة مجددا. كان من المستحيل في نظرهم أن تنتهي قضيتهم بهذا الموت: كانوا بحاجة إلى «ثأر»، و«محكمة» (لكن أي شيء يمكنه أن يكون أبعد ما يكون عن الإنجيلية من «الثأر» و«العقاب» و«المحاكمة»!). مرة أخرى تعود الأمنية الشعبية المتمثلة في انتظار المسيح إلى الواجهة؛ وهناك لحظة تاريخية قد وضعت نصب الأعين: «ملكوت الله» يحل مجددا فوق الأرض لمقاضاة أعدائه. . . لكن هنا حدث سوء الفهم الذي شمل كل شيء: «ملكوت الله» كنهاية، وكشيء موعود! فالإنجيل على عكس ذلك كان هو «ملكوت الله» في الوجود، وفي الانجاز، وفي واقعيته. . . ابتداء من تلك اللحظة فقط ستقحم كل مشاعر الاحتقار والحقد على الفريسيّين واللاهوتيين داخل الصورة النموذجية للمعلّم، وبذلك جعلوا منه فريسيّا ولاهوتيا! من ناحية أخرى لم يعد بوسع الإجلال المنفلت من كل قيد لتلك الأنفس الواقعة في الضلال أن تتحمل المساواة الإنجيلية التي تجعل من الجميع أبناء لله، ذلك الحق الذي كان يكرز به يسوع: كانت رغبة الانتقام تدفع إلى *الرفع* من منزلة يسوع على نحو مشط وفصله عنهم؛ تماما كما فعل اليهود من قبل عندما عمدوا بمقتضى الحقد على أعدائهم إلى فصل ربهم عنهم والارتقاء به إلى مرتبة بعيدة من السمو. الإله الواحد والإبن الواحد: كلاهما نتاج للضغينة. . .

٤١

- ومنذ ذلك الحين ظهر إشكال سخيف: «كيف استطاع الله أن يسمح بذلك!» وفي الحين وجد العقل المشوّش للطائفة الصغيرة جوابا على قدر شنيع من اللغو السخيف: لقد قدم الله إبنه *قربانا* للتكفير عن ذنوبنا. ولكم كانت تلك ضربة قاضية وضعت حدا للإنجيل دفعة واحدة! أضحية الكفّارة، وفي شكلها الأكثر بشاعة والأكثر وحشية، التضحية بـ*البريء* من أجل خطايا الخاطئين! أية وثنية مفزعة هي هذه!- كان يسوع قد ألغى فكرة «الذنب» ذاتها. وقد نفى وجود الهوة الفاصلة بين الله والإنسان، و*عاش* وحدة «الله كإنسان» كـ«رسالة البشرى» *الخاصة* به... وليس كامتياز!

من الآن فصاعدا سيتم بتدرج إدماج التعاليم التالية داخل نموذج المخلّص: تعاليم العودة والمقاضاة، وتعاليم الموت كتضحية، وتعاليم *البعث* التي تم بموجبها طمس مجمل المفهوم المتعلق بـ«الغبطة» التي تمثل الواقع الوحيد والكلي للإنجيل، لصالح حالة بعد الموت!... بولس، وبتلك الوقاحة الحاخامية التي تميزه في كل شيء، هو الذي أعطى الصياغة المنطقية لهذا المفهوم الفاجر: «إن لم يُبعث المسيح فسيكون إيماننا باطلا»[٤٧]. وبهذا يكون الإنجيل قد تحول إلى الوعد الأكثر حقارة من بين الوعود الكاذبة كلها، والمذهب *الوقح* القائل

---

(٤٧) رسالة بولس الأولى إلى أهل كونثوس؛ الإصحاح الخامس عشر ١٤: «وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضا إيمانكم.»

بالخلود الشخصي. . . وكان بولس نفسه يكرز لذلك *كثواب*! . . .

٤٢

واضح إذن أي أمر قد انتهى مع حادثة الموت على الصليب: إنه مشروع جديد، مشروع أصيل لحركة تحرر بوذية، ولسعادة *أرضية* حقيققية، وليس مجرد سعادة موعودة. ذلك أن هذا الفارق الأخير يظل -كما بيّنت سابقا- الفرق الساسي بين كلتي ديانتي الانحطاط: البوذية لا تعد بشيء، بل تُحقق، أما المسيحية فتعد ولا تحقق *شيئا*. - فـ«رسالة البشرى» قد تبعتها مباشرة الرسالة الأكثر شؤما: رسالة بولس. في بولس تجسد النموذج النقيض «لرسول البشرى»؛ عبقرية الحقد، وعبقرية رؤية الحقد، والمنطق القاطع للحقد. وأي شيء لم يقدمه «مستأصِل الإنجيل» قربانا للحقد! وأولها المخلّص: لقد سمّره على صليبه. الحياة، والمثال، والتعاليم، والموت، والمغزى والحق المتضمن في الإنجيل بأكمله؛ ما من شيء ظل قائما عدا الفكرة المتأسسة على الحقد لذلك المزوّر، عدا ما يمكن أن يخدم أغراضه. لا الواقع، ولا الحقيقة التاريخية!. . . ومرة أخرى تقترف غريزة الكاهن اليهودي نفس الجريمة العظمى في حق التاريخ؛ تشطب أمسَ المسيحية، وأول أمسها، وتبتدع *لنفسها تاريخا للمسيحية الأولى*. بل أكثر من ذلك فقد عمد إلى إعادة تزوير تاريخ إسرائيل ليجعل منه شيئا قابلا للظهور بمظهر التوطئة لأفعاله: كل الأنبياء قد أعلنوا عن مجي «مخلصـ»ـه. . . وقد

ذهبت الكنيسة في ما بعد حد تزوير تاريخ البشرية بكليتها لتجعل منه توطئة للمسيحية. . . نموذج المخلّص، والتعاليم، والممارسة، والموت، ومغزى الموت، وحتى ما بعد الموت؛- لم يسلم أي شيء، ولا شيء ظل محافظا ولو على مجرد شبَه بالواقع. لقد حول بولس مركز ثقل الوجود إلى ما وراء الوجود، في أكذوبة المسيح «المنبعث من الموت». وفي الحقيقة لم يكن ليجد له من فائدة في *حياة* المخلّص،-كان بحاجة إلى الموت على الصليب، وأكثر. . . أن نمنح مصداقية لواحد مثل بولس قد اتخذ موطنا له في مركز العقلانية الرواقية[٤٨] عندما يلفق من هلوسة له حجة على وجود المخلّص على قيد الحياة، أو عندما يروي أنه قد عاش تلك الرؤيا، وأن نصدق بتلك الادعاءات، فإن ذلك سيكون محض بلاهة من جانب خبير نفساني: كان بولس يريد الغاية، *وبالتالي* فقد كان يريد الوسيلة أيضا. . . وما لم يكن يصدقه هو نفسه، قد صدقه الأغبياء الذين ألقى بمذهبه بينهم. - لقد كانت حاجته ومبتغاه هي القوة: مع بولس عاد القس إلى إرادة القوة؛-لم يكن في حاجة إلا إلى أفكار وتعاليم ورموز لكي يُرعب جماهير الشعب ويكوّن قطعانا. -ما هو الشيء الوحيد الذي اقتبسه محمد من المسيحية في ما بعد؟ إنه ابتكار بولس، ووسيلته لبسط الاستبداد الكهنوتي ولتكوين القطعان، والإيمان بالخلود- *أي نظرية «الحساب»*. . .

---

(٤٨) في نسخة المخطوطة الموجهة إلى الناشر (Dm) نقرأ الصياغة التالية: «اتخذ له موطنا في الجامعة الكبرى لرواقية العصور القديمة»

٤٣

عندما نضع مركز الثقل، لا في الحياة، بل في «الآخرة» -في *العدم*-، نكون قد سلبنا الحياة مركز ثقلها. إن الأكذوبة الكبرى المتعلقة بالخلود الشخصي تدمر كل صواب وكل طبيعة في الغرائز؛ وإذا كل ما هو محسن، وحافز للحياة، وحامل للمستقبل، قد غدا مثيرا للريبة. أن يحيا الإنسان على نحو يجعل المرء لا يرى من معنى في الحياة، ذلك هو ما تحول الآن إلى «معنى» للحياة... لِم الحس الجماعي إذن، ولِم الاعتراف بالجميل للأصل وللسلف، لِم التعاون والثقة والاهتمام بالصالح العام وتشجيعه؟... «مغريات» كثيرة و«انحرافات» عن «الطريق السوي» لا تقل عنها كثرة، و«الحاجة إلى *واحد*»[٤٩]... أن يكون كل أحد «روحا خالدة» ومن نفس المرتبة مع كل أحد، وأن يكون في المجمل بإمكان «خلاص» *كل* فرد أن يريد لنفسه أهمية خالدة، وأن يحق لصغار المرائين وأنصاف المعتوهين أن يتوهموا بأنه ينبغي أن تظل قوانين الطبيعة تُخرق بصفة دائمة من أجلهم؛ -مثل هذا التضخم في كل أنواع الأنانية واستعارها اللامتناهي حد الوقاحة لا يمكن أن نفيه حقه بوسمه بما يستحق من مياسم الاحتقار. ومع ذلك فإن المسيحية تدين بانتصارها إلى هذا التملق البائس للغرور الشخصي، -ذلك بالذات هو ما مكّنها من أن تكسب إليها مجمل المعوقين والفاشلين والمتمردين وكل

---

(٤٩) لوقا، الإصحاح العاشر ٤١-٤٢: «فأجاب يسوع وقال لها مرْثا مرْثا أنتِ تهتمّين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. لكن الحاجة إلى واحد.»

زبد وحثالة البشرية. «خلاص الروح»، أو بعبارة أوضح: *«أنا مركز الكون»*... أما ذلك السم المندس في مبدأ «حقوق متساوية للجميع» فقد عملت المسيحية على بثه بصفة مقنّنة. - وقد أعلنت المسيحية من منطلق الزوايا الخفية للغرائز السيئة حربها على كل إحساس بالاحترام وبالمسافة الفاصلة بين إنسان وإنسان، أي على *الشرط* الأساسي لكل ارتقاء، وكل تطور ثقافي؛ -صنعت لها من ضغينة جماهير الشعب *السلاح الرئيسي لمحاربتنا*، لمحاربة كل نبيل ومرِح وشهم على وجه الأرض، لمحاربة سعادتنا الأرضية... لقد مثّل الإقرار بـ«الخلود» لبطرس وبولس أكبر وأشرس اعتداء على الإنسانية النبيلة. ولا نقللنّ من أهمية الكارثة التي تسللت من المسيحية لتشمل حتى المجال السياسي! إذ لم يعد لأحد في يومنا هذا من شجاعة على المطالبة بحقوق امتيازية وبحقوق السيادة، وعلى فرض مشاعر الاحترام تجاه النفس والآخرين على حد السواء، -الشجاعة على حس *المسافة*. سياستنا مريضة بهذا الافتقار إلى الشجاعة! واستقراطية الرأي هي الشيء الذي تم اجتثاثه من الجذور عن طريق أكذوبة تساوي الأنفس، وإذا ما كان الإيمان بـ«حق الأكثرية» هو الذي يشعل الثورات وسيظل يشعلها، فإنه ما من شك بأن المسيحية والقيم المسيحية هي التي تحول كل ثورة إلى أنهار من الدماء والجرائم![٥٠] فالمسيحية هي انتفاضة كل زاحف على الأرض

(٥٠) أدخل نيتشه العديد من التعديلات على الصياغات الأولى الواردة في شذرات المسودات من بينها مثلا في هذا الموقع: «إن الإيمان بامتيازات

ضد كل ما يمتلك سموا ورفعة: إن إنجيل «الضعفاء» يجعل كل شيء ضعيفا وضيعا. . .

٤٤

تمثل الأناجيل وثيقة ذات أهمية لا تقاس بثمن عن الفساد الذي كان منذ البدايات يعرف اندفاعة عاتية في *صلب* الطائفة المسيحية الأولى. ولم يكن ما جاء بولس من بعد ليمضي به إلى منتهاه بمنطق الصلفي الحاخامي سوى مواصلة لصيرورة التدهور التي بدأت مع موت المخلّص. ولن يكون أي حذر، مهما بدا مشطا، فائضا عن اللزوم في قراءة هذه الأناجيل؛ فخلف كل كلمة منها تختبئ غوامض وصعوبات. وعلي أن أعترف–وسيكون المرء ممتنا لي بذلك– بأنها، ولذلك السبب تمثل متعة من درجة أولى بالنسبة للخبير البسيكولوجي، وذلك بوصفها النقيض لكل فساد ساذج، ومثال *للباقة بامتياز*، وبراعة فنية في الفساد البسيكولوجي. إن الأناجيل شيء فريد من نوعه. والكتاب المقدس عموما غير قابل للمقارنة؛ فالمرء هنا أمام يهود: زاوية نظر رئيسية، إن كنا لا نريد أن يفلت منا الخيط الرابط كليا. تلك المقدرة المميزة المتحولة عبقرية في انتحال «القداسة»–حد مغالطة النفس– بما لا يمكن أن يكون له من شبيه، لا في الكتب ولا

للأغلبية الذي يشعل الثورات ليس في الحقيقة سوى ترجمة للأحكام القيمية المسيحية بقوة العضلات.» ثم الجملة الأخيرة من هذا المقطع: «المسيحية هي انتفاضة السواد الأعظم ضد كل ذي قيمة، -إنها إنجيل «الوضيع.»

بين الناس، ناهيك عن التوصل إلى إنجازه؛ وتلك القدرة *الفنية* على الزيف والتزوير في العبارة والهيأة ليست من قبيل الصدفة المرتبطة بموهبة فردية ما، أو طبيعة استثنائية بعينها؛ إنما المسألة هنا مسألة *ترتبط* بعرق. فاليهودية بكليتها، بما تملكه من دربة غاية في الصرامة، ومن تقنيات مئات السنين هي التي تجد نفسها منصبّةً براعةً متقَنة ونهائية في المسيحية كفن رفيع في الكذب المقدس. والمسيحي، ذلك الـ *ultima ratio* الملاذ الأخير للكذب، إنما هو اليهودي مرة أخرى،- اليهودي نفسه دوما. . .-تلك الإرادة المبدئية التي تصر على أن لا تعالج غير أفكار ورموز ومواقف مثبتة من خلال ممارسات القساوسة، وغريزة الرفض لكل ما عداها من الممارسات *المغايرة* ولكل رؤية قيَمية ونفعية من نوع آخر-هذه ليست تقاليد فحسب؛ إنها *إرث*: وكإرث فقط تأتي مفعولها كطبيعة. وقد انساقت الإنسانية بكليتها، بما في ذلك أفضل العقول ومن أفضل العصور التاريخية (عدا شخص واحد قد يكون كائنا فظيعا وليس إنسانا)، إلى تلك الخدعة. وقد تمت قراءة الإنجيل وتأوله كـ «*كتاب البراءة*»: وما من مجرد إشارة ولو صغيرة إلى مدى البراعة التي يقدم بها ذلك العرض المسرحي. ومن المؤكد، لو أننا فقط *رأيناهم*، ولو بصفة سريعة عابرة، كل أولئك المرائين العجيبين والممثلين المقدّسين، لكان كل شيء قد انتهى-وبما أنني لا أقرأ كلمة واحدة دون أن أرى إيماءات، ولذلك السبب بالذات، *أنهي أمرهم وانتهي* منهم. . . إن لهم طريقة في رفع أبصارهم إلى السماء لا أستطيع تحملها. -ولحسن الحظ أن الكتب لا تمثل لأغلبية الناس أكثر

من مجرد *أعمال أدبية*. على المرء أن يحترس من الانقياد إلى الضلال: «لا تحكم» يقول أولئك، لكنهم يبعثون إلى الجحيم بكل ما يعيق طريقهم. وبتحكيمهم لله في كل أمر، إنما يحكّمون أنفسهم؛ وبإجلالهم للّه، إنما هم يجلّون أنفسهم؛ وبتأكيدهم على الفضيلة التي في متناولهم- وأكثر من ذلك تلك التي يحتاجون إليها لضمان بقائهم في موقع السيادة- يمنحون أنفسهم المظهر الجليل للمنافح عن الفضيلة، و المقاتل من أجل سيادة الفضيلة. «إننا نحيا ونموت ونضحي بأنفسنا من أجل الخير» (-«الحقيقة»، و«النور»، و«ملكوت الله»)؛ وهم في الحقيقة لا يفعلون سوى ما لا يستطيعون تركه. وعندما ينكمشون انكماش الجبناء ويتخذون مجلسا لهم في الزوايا ويقضون في الظل حياة الأشباح فإنهم يجعلون لأنفسهم من ذلك *فرضا*: وكفرض تتراءى لهم حياتهم تواضع طاعة، وكتواضع طاعة تغدو علامة إضافية على التقوى... يا لذلك الكذب المتواضع العفيف الرحيم! «الفضيلة نفسها هي التي تشهد لنا»... على المرء أن يقرأ الناجيل ككتب غواية *بواسطة الأخلاق*: فالأخلاق محتجَزة من قبل هذا الرهط الحقير من الناس؛- وهؤلاء عارفون بمدى أهمية الأخلاق! فبواسطة الأخلاق تغدو الإنسانية *طيّعة سهلة الانقياد*! والحقيقة هي أن *الغرور المصطفى*، وبصفة واعية أرقى ما يكون الوعي، يلعب هنا دور التواضع: لقد وضع هؤلاء أنفسهم نهائيا، مع طائفتهم و«أهل الصلاح والعدل» في جانب، هو جانب «الحقيقة»، وكل ما تبقى، أي «الدنيا» في الجانب الآخر... كان ذلك أكبر ضرب من جنون العظمة مما وجد على

وجه الأرض حتى تلك اللحظة: مجموعة كائنات مسيخة حقيرة من مرائين وكذّابين راحت تحتكر لنفسها مفاهيم «الله» و«الحقيقة» و«النور» و«الروح» و«المحبة» و«الحكمة» و«الحياة»، كما لو كانت مرادفاتٍ لها، وذلك بهدف وضع حد فاصل بينها وبين «العالم»: صغراء يهود مصابين بالتضخم، صالحون لكل أنواع مصحات المجانين قد قلبوا كل القيم في الاتجاه الذي يريدونه لها، كما لو أن المسيحيّ هو المعنى، والملح، والمكيال، و*المحكمة الأخيرة* بالنسبة لكل ماعداه... إن ما جعل مجمل هذه الكارثة تصبح ممكنة هو أنها كانت مسبوقة بوجود جنون عظمة مشابه وذي قرابة عرقية: اليهودية. وحالما شرعت الهوة بين اليهود واليهود المسيحيين في الاتساع لم يتبق لهذه الطائفة الأخيرة من خيار سوى أنْ تتوخى نفس إجراءات الحماية الذاتية التي أملتها عليها الغريزة اليهودية لمواجهة اليهود، بينما اعتمدها اليهود من قبلهم وإلى حد تلك اللحظة لمواجهة كل ما لم يكن يهوديا. إن المسيحي ليس شيئا آخر سوى يهودي بعقيدة أكثر «انفتاحا».

٤٥

أقدم هنا بعض النماذج عما استنبطه أولئك الناس البسطاء، وما وضعوه على لسان معلمهم: مجرد شهادات إيمان لـ«أرواح طيبة»:

«وكل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فاخرجوا من هناك وانفُضوا التراب الذي تحت أرجلكم شهادةً عليهم. الحقَّ أقول

لكم ستكون لأرض سدوم وعَمورة يومَ الدين حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة.» (إنجيل مرقس؛ الإصحاح السادس، ١١)- *يالها من إنجيلية!* . . -

« ومن أعثَر أحدَ الصغار المؤمنين بي فخيرٌ له لو طُوّق بحجرِ رحى وطُرح في البحر.» (مرقس؛ ٩/ ٤٢) -*يالها من إنجيلية!* . . .

«وإن أعثرتْكَ عينُك فاقلعْها. خيرٌ لك أن تدخل ملكوت الله أعورَ من أن تكون لكَ عينان وتُطرح في نار جهنّم. حيث دودُهم لا يموت والنارُ لا تُطفأ.» (مرقس ٩/ ٤٧)

- كلا، ليست العين بالذات هي المعنية. . .

«الحقّ أقول لكم إنّ من القِيامِ هنا قوما لا يذوقون الموتَ حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوّة.» (مرقس ٩/ ١) -بل كذبتَ، بل كذبت، يا أسد[٥١] . .

«من أراد أن يأتي ورائي فليُنكرْ نفسه ويحملْ صليبه ويتبعْني(. . .) لأنه. . .[٥٢] (ملاحظات خبير نفساني: إن

---

(٥١) الأسد هو الحيوان الرمزي الذي يقترن بشخصية الإنجيلي متّى في التقليد المسيحي.

(٥٢) المقطع كاملا من إنجيل مرقس؛ الإصحاح ٨/ ٣٤-٣٨: «ودعا الجمعَ مع تلاميذه وقال لهممن أراد أن يأتي ورائي فليُنكرْ نفسَه ويحمل صليبضه ويتبعني. فإنّ من أراد أن يخلّص نفسه يهلِكُها. ومن يهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل فهو يخلّصها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. . أو ماذا يعطي الإنسانُ فداء عن نفسه. لأنّ من استحى بي وبكلامي في هذا الجيل الفاسق الخاطئ فإنّ ابن الإنسان يستحي به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القدّيسين.» (م)

الأخلاق المسيحية تجد نفسها مدحوضة ب «لأن»-*اتِها* الكثيرة: عللها تدحض، - إنها ميزة مسيحية!)

«لا تدينوا لكي لا تُدانوا. لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون. وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم.» (متى ٧/ ١) -أي مفهوم للعدالة هذا، من طرف قاض «عادل»!..

«لأنه إن أحببتم الذين يحبّونكم **فأيّ أجر لكم**؟(*) أليس العشّارون أيضا يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على إخوتكم فقط **فأي فضل تصنعون**؟ أليس العشّارون أيضا يفعلون هكذا.» (متى ٥/ ٤٦- -مبدأ «المحبة المسيحية»: ما تريده بالنهاية هو *أجر* جيد...

«وإن لم تغفروا للناس زلاّتِهم لا يغفر لكم أبوكم الذي في السماء زلاّتكم هو أيضا.» (متى ٦/ ١٥) -موقف مثير للشبهات بشأن من يسمى بـ«الأب».

«لكن أطلبوا أولا ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تُزاد لكم.» (متى ٦/ ٣٣). وهذه كلها التي يذكرها هنا هي: المأكل والملبس وكل حاجيات الحياة. *خطأ*، كي نتكلم باعتدال متواضع... بعدها مباشرة سيظهر الرب في هيأة خيّاط، في بعض الحالات على الاقل...

«افرحوا في ذلك اليوم وتهللوا. فهوذا أجركم عظيم في السماء. لأن آباءكم هكذا كانوا يفعلون بالأنبياء.» (لوقا ٦/ ٣٦) - ياللحثالة الوقحة! وتقارن نفسها بالأنبياء أيضا!...

(*) كل التشديدات بالخط الغليظ في مقتطعات الأناجيل من عند نيتشه (م)

«أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم؟ إن أحدٌ يفسد هيكل الله *فيفسده الله* لأن هيكل الله مقدّس الذي *أنتم* هو. (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٣/ ١٦) -لن يكون بوسعنا مهما فعلنا أن نفي مثل هذا الكلام حقَّه من الاحتقار...

«ألستم تعلمون أن القدّيسين سيدينون العالم. فإن كان العالم يدان بكم أفأنتم غير مستأهلين للمحاكم الصغرى؟» (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٦/ ٢) -ليس هذا، للأسف، مجرد كلام مجنون من مصحة أمراض عقلية... فهذا *الغشاش الفظيع* يواصل حرفيا هكذا: «ألستم تعلمون أننا سنُدين ملائكةً، فبالأوْلى أمورَ هذه الحياة»...

«ألم يجهّل الله حكمةَ هذا العالم؟ لأنه إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة، استحسن الله أن يخلّص المؤمنين بجهالةِ الكِرازة(...) فانظروا دعوتكم أيها الإخوة أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد، ليس كثيرون أقوياء، ليس كثيرون شرفاء، بل اختار الله جُهّال العالم ليُخزي الحُكماء. واختار ضعفاء العالم ليُخزيَ الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمزدَرَى وغير الموجود ليُبطل الموجودَ، لكي لا يفتخر كلُّ ذي جسد أمامه.» (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الأول ٢٠-٢١ ... ٢٦-٢٩). كي يمكن فهم هذا المقطع الذي يمثل شاهدا من درجة أولى على سيكولوجية كل أخلاق شاندالا، على المرء أن يقرأ الجزء الأول من كتابي «جنيالوجيا الأخلاق»؛ ففيه يُطرح إلى النور لأول مرة التناقض الذي يقابل بين أخلاق نبيلة وأخلاق شاندالا متولدة عن الضغينة

وعن الانتقام العاجز. لقد كان بولس الداعية الأكبر من بين دعاة الانتقام جميعا. . .

٤٦

- *ما الذي ينجر عن هذا؟* أن يفعل المرء خيرا بأن يضع قفازين عند قراءة كتاب العهد الجديد. فالاقتراب من مثل هذا الكم الهائل من القذارة يضطرنا على ذلك تقريبا. وسنختار رفقة هؤلاء «المسيحيين الأوائل» بالقدر المحدود الذي نفعله مع اليهود البولنديين: بل ليس من الضروري أن يكون للمرء حتى مجرد اعتراض عليهما. . . فلكليهما رائحة كريهة. -لقد بحثت دون جدوى داخل الإنجيل طمعا في العثور على ملمح لطيف واحد؛ لا شيء داخله مما يمكن أن يكون حرا، خيّرا، صريحا، شريفا. فالمنحى الإنساني لم يخْط بعد خطوته الأولى داخله، -غرائز *النقاوة* مفقودة فيه، وليس هناك سوى غرائز سيئة داخل العهد الجديد، ولا وجود حتى للشجاعة الضرورية لهذه الغرائز السيئة. كل شيء فيه جبن، وكل شيء غض طرف، وخداع للنفس. وإن نحن قرأنا العهد الجديد سيبدو لنا كل كتاب طاهرا من بعدها: لقد قرأت، على سبيل المثال، مباشرة بعد بولس، وبافتتان شديد ذلك الساخر الأكثر جرأة والأكثر لطافة وهو بيترونيوس[٥٣] الذي يمكن أن نقول عنه، مثلما كتب دومينيكو بوكاشيو إلى دوق بارما

(٥٣) تيتوس بيترونيوس، المعروف أيضا بإسم غايوس بيترونيوس، سيناتور روماني ومؤلف لرواية ساخرة شهيرة تحمل عنوان Satirycom (م).

عن سيزار(قيصر) بورجيا[٥٤]: "è tutto festo" -خالد العافية، خالد المرح والتوفيق... فهؤلاء المراؤون الصغار يخطئون حساباتهم في ما يتعلق بما هو أساسي. إنهم يهاجمون، لكن كل ما يمسه عدوانهم يغدو من جراء ذلك مميزا. فالذي يتعرض لعدوان «مسيحي أول» لا يناله دنس بسبب ذلك... بل على العكس من ذلك، إنه لشرف أن ينال المرء معاداة «مسيحيين أوائل». ونحن لا نقرأ كتاب العهد الجديد دون الشعور بميل إلى كل ما تلحق به الإهانة داخله -كي لا نتكلم عن «حكمة هذا العالم» التي يسعى مهرج وقح عبثا إلى تخزيتها عن طريق «جهالة الكرازة»... ولكن الفرّيسيين والكتبة ستكون لهم فائدة هم أيضا

---

(٥٤) سيزار بورجيا (١٤٧٥-١٥٠٧) ينحدر عن عائلة من نبلاء إسبانيا غدت ذات نفوذ في إيطاليا منذ القرن الخامس عشر. إبن رودريغو بورجيا الذي سيصبح البابا الإسكندر السادس. خاض سيزار بورجيا العديد من الحروب لصالح الكنيسة البابوية ومصالح عائلة بورجيا وقد عرف بعدم ادخاره لأية وسيلة من أجل القضاء على أعدائه ومنافسيه، من الخنجر إلى السم والخيانات دون ورع. سينجح في بلوغ مراتب عالية منها رئاسة الأساقفة بفالنسيا (١٤٩٣) وهو في الثامنة عشرة من عمره، ثم مطران (١٤٩٣-١٤٩٨)، ثم دوق رومانيّا (شمال إيطاليا: ١٥٠١). لكن طموحه الأساسي كان يتمثل في اعتلاء كرسي البابوية بعد وفاة أبيه. غير أن أعضاء الكوليجيوم لم يمنحوه أصواتهم بعد موت أبيه سنة. ينسحب إلى نابولي ويطلب حماية العرش في إسبانيا، لكن الملك فرديناند يسجنه عوضا عن مناصرته. يفر بعد سنتيم من السجن ويخوض الحرب إلى جانب صهره يوهان ملك نافارا، حيث سيلقى حتفه. سيتخذه ماكيافيللي فيما بعدد، وقد كان معجبا بشخصيته نموذجا لشخصية مؤلفه الشهير «الأمير» الذي طبع سنة ١٥٣١. (م)

من سخط هؤلاء الأعداء: لا بد أنهم كانوا على شيء من القيمة كيما ينصبّ عليهم مثل ذلك السخط الدنيء. الرياء- تلك هي التهمة التي كان *بإمكان* «المسيحي الأول»(*) أن يقذفهم بها! فقد كانوا بالنهاية *أصحاب الامتياز*؛ وهذا كاف لوحده، فحقد الشاندالا لا يحتاج إلى أكثر من ذلك من الحجج. «المسيحي الأول» -وأخشى أن يكون «المسيحي الأخير»، الذي ربما يمتد بي العمر حتى أعايشه،- متمرد من منطلق غرائزه الأكثر سفالة ضد كل صاحب امتياز، إنه يحيا، ويقاتل على الدوام من أجل «مساواة الحقوق»... ولا خيار له في ذلك، إذا ما نظرنا إلى الأمر بأكثر دقة. وإذا ما أراد المرء لنفسه أن يكون «عبد الله المختار»، أو «هيكلا لله»، أو «قاضيا على الملائكة»، فإن كل مبدأ اختيار آخر قائم على الاستقامة مثلا، أو على العقل، أو على الفحولة والكبرياء، أو على الجمال، وعلوّ الهمة، سيكون بكل بساطة «دنيا»: *الشر في ذاته*...

عبرة القول: كل كلمة على لسان «مسيحي أول» كذبة، وكل عمل مما يقوم به زيف غريزي، -كل قيمه وكل غاياته محض مَضرّة، لكنه عندما يحقد، فإن *ما* يحقد عليه يكون *ذا* قيمة... إن المسيحي، والقس المسيحي بصفة أخص، معيار قيمة إذن... هل ينبغي عليّ أن أقول مرة أخرى بأنه لا يوجد داخل العهد الجديد غير شخصية واحدة جديرة بالاحترام؟ إنه بلاطس، حاكم المدينة الروماني. أن يأخذ خصومة يهودية بجدية، فذلك ما لم يكن ليخطر له أن يوليه اهتماما. يهودي أكثر أو يهودي أقل؛ أية أهمية لذلك؟... ولقد كان للسخرية الراقية لروماني

كان يجري أمامه استعمال ماسخ وقح لعبارة «الحقيقة» أن أثْرت كتاب العهد الجديد بالكلمة الوحيدة *التي لها* قيمة، -والتي تمثل نقدا له، بل *وإبادته* أيضا: «ما الحقيقة؟»(٥٥) . . .

٤٧

ما يميزنا لا يتمثل في كوننا لم نعثر على إله، لا في التاريخ ولا في الطبيعة، أو حتى في ما وراء الطبيعة، -بل كوننا لا نرى في ما ظل يعبد كإله شيئا «إلهيا»، بل شيئا جديرا بالشفقة، شيئا سخيفا ومضرا، لا كخطأ فقط، بل كجريمة في *حق الحياة*. . . إننا نرفض الله كإله. . . وحتى لو قُدّمت لنا *البراهين* على إله المسيحيين، فإننا سنكون أقل إيمانا به. وصيغة قاعدتنا هي: *deus, qualem Paulus creavit,die negatio** (الله الذي ابتدعه بولس هو نفي لله). -إن ديانة، مثل المسيحية، لا تلامس الواقع في أي نقطة، وسرعان ما تنهار لمجرد أن يستعيد الواقع سيادته ولو في نقطة واحدة، لا يسعها بطبيعة الحال إلا أن تكون العدو اللدود لـ«حكمة هذا العالم»، أعني *للعلم*. كما ترحب بكل الوسائل التي بوسعها أن أن تسمم تربية العقل والاستقامة الصارمة في ما يتعلق بالنزاهة العقلية والحرية الراقية والهادئة للعقل،

(٥٥) إنجيل يوحنا؛ الإصحاح الثامن عشر ٣٧-٣٨: «فقال له بيلاطس افأنت إذن ملكٌ. أجاب يسوع أنت تقول إني ملك. لهذا قد ولدت أنا ولهذا أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل من هو من الحق يسمع صوتي. قال له بيلاطس ما هو الحقّ؟»

(*) «الإله الذي ابتدعه بولس هو نفي لله».

تفتري عليها وتستنقصها وتشوهها. إن «الإيمان» كأمر مُلزم هو *الفيتو* الذي يرفع ضد العلم، وفي حقل الممارسة هو الكذب بأي ثمن... لقد *أدرك* بولس أن الكذب-«الإيمان» كان شيئا ضروريا؛ وبعدها فهمت الكنيسة بدورها بولس. هذا «الإله» الذي ابتكره بولس لنفسه، إله يبطل ويُخزيَ «حكمة هذا العالم» (بمعنى أدق: العدوّان لكل إيمان خرافي، وهما الفيلولوجيا والطب)، هو في الحقيقة لا شيء سوى القرار الراسخ لبولس بأن يسمي «الله» بمحض إرادته توراةً، وهذه يهودية عريقة. يريد بولس أن يُخزي «حكمة العالم»: أعداؤه هم أطباء وفيلولوجيو مدرسة الإسكندرية؛- وضدهم يعلن الحرب. وبالفعل فإنه لا يمكن للمرء أن يكون فيلولوجيا أو طبيبا دون أن يكون *نقيضا للمسيح*(*). كفيلولوجي ينظر المرء في ما وراء «الكتب المقدسة»، وكطبيب في ما وراء الانحلال الفزيولوجي للمسيحي النموذجي. الطبيب يقول «لا أمل في شفائه»، والفيلولوجي يقول «دجل!»...

٤٨

هل فهم الناس فعلا مغزى القصة الشهيرة التي ترد في مستهل الإنجيل، عن الفزع الشديد الذي يبديه الرب تجاه *العلم*؟... كلا، إنها لم تفهم. هذا الكتاب الكهنوتي بامتياز يبدأ، كما ينبغي عليه أن يبدأ، بالقلق الداخلي الأكبر للقس: إن

(*) لعل نيتشه يلمح إلى نفسه هنا بوصفه عالما فيلولوجيا هو أيضا.

لديه خطرا جسيما واحدا، *وبالتالي* فإن لله خطرا جسيما واحدا أيضا.

كان الرب القديم، روحا خالصة، قسا أكبر خالصا، كمالا خالصا يتنزه داخل جنانه(٥٦): لكن ها هو يحس بالضجر؛ وأمام الضجر تقف حتى جهود الآلهة نفسها عاجزة عن المقاومة. ما الذي فعله إذن؟ خلق الإنسان،- فالإنسان مسلٍّ... لكن ها أن الإنسان يصيبه الضجر هو أيضا. غير أن رحمة الله كانت بلا حدود تجاه المحنة الوحيدة التي كانت تعرفها كل جنانه: وهاهو يخلق بعدها عددا آخر من الحيوانات. *خطأ أول* للرب: لم يجد الإنسان تلك الحيوانات مسلية،- كان يسود عليها، ولم يكن ليريد حتى أن يكون «حيوانا». لذلك خلق الله المرأة. وبالفعل اضمحل الضجر دفعة واحدة، لكن معه اضمحلت أشياء أخرى أيضا. فالمرأة كانت *الخطأ الثاني* للرب. «المرأة في جوهرها حيّة»؛ (حوّاء) -كل قس يعرف هذا؛ و«من المرأة تتأتى *كل* الشرور في العالم» - كل قس يعرف هذا أيضا. «تبعا لذلك فهي منبع *العلم* أيضا»... عن طريق المرأة فقط اهتدى الرجل إلى تذوق فاكهة شجرة المعرفة. -ثم ما الذي حدث؟ الرب القديم

(٥٦) اعتمد نيتشه كثيرا في هذا المقطع على كتاب يوليوس فلهاوزن (أنظر الهامش...) كما يلاحظ الباحث من خلال التعليمات الكثيرة والتعليقات التي كان يخطها في الهامش. بهصوص نزهة الرب داخل جنانه يكتب فلهاوزن: «لا ينزل يهوه من السسماء، بل يتنزه مساء داخل حديقته كما لو كان في بيته.» وعبارة «يتنزه» مسطرة من طرف نيتشه في النسخة الموجودة في مكتبته.

يتملكه الهلع. لقد غدا الإنسان نفسه خطأه *الأكبر*؛ لقد خلق لنفسه منافسا، فالعلم يجعل الإنسان *ندا للإله*،- عندما يصبح الإنسان عالما، تكون تلك نهاية القساوسة والآلهة!- عبرة القول: العلم هو الممنوع في ذاته،- هو وحده الممنوع. العلم هو *الخطيئة الأولى*، بذرة كل خطيئة، الخطيئة *الأصلية*. وليست *الأخلاق* سوى *هذا الأمر*: «لا ينبغي أن تعرف»، والبقية كلها نتائج متفرعة عن هذا الأمر. لكن الذعر الشديد لم يكن ليمنع الربّ من أن يكون فطنا. كيف يمكن *التحصن* من العلم؟ لقد غدا ذلك لمدة طويلة هاجسه الأساسي. والجواب: ليُطرد الإنسان من الجنة! السعادة والعطالة تجر إلى التفكير،-وكل الأفكار أفكار سيئة... لا ينبغي على الإنسان أن يفكر. -ثم إن «القس في ذاته» ابتدع الفاقة والموت وخطر الحبل القاتل وكل ضروب البؤس والشيخوخة والعناء *والمرض* على وجه الخصوص، وسائلَ كلها لمقاومة العلم! فالعوز لا يسمح للمرء بالتفكير... ومع ذلك، وياللفزع! قد تراكمت منتجات المعرفة وتنامت برجا مداهما للسماء، مؤذنا بغروب الآلهة،- ما العمل إذن؟ يبتكر الرب القديم *الحرب*، يفرّق الشعوب ليتقاتل الإنسان مع الإنسان في عمل إبادة متبادل (لقد كان القساوسة دوما في حاجة إلى الحرب...). الحرب كعائق كبير معطِّل للعلم أيضا! لكن يا للغرابة! هي ذي المعرفة *والتحرر من سيطرة القس* تنمو باطراد رغما عن الحرب. وها هو الرب القديم يتخذ قراره الأخير: «لقد غدا الإنسان كائنا عالما، -ولا نفع *في كل الإجراءات*، لا بد *إذن من إغراقه!*»

٤٩

لقد كان قصدي مفهوما. تحتوي بداية التوراة على مجمل سيكولوجيا القس. أمام القس خطر كبير واحد: إنه العلم؛ - الفهم السليم للعلة والنتيجة. غير أن العلم لا يزدهر إلا ضمن شروط ملائمة وظروف جيدة؛ فالمرء بحاجة إلى وقت، وبحاجة إلى *فائض* من العقل كي «يعرف»... «*بالتالي*لا بد أن نجعل الإنسان بائسا»، ذلك كان منطق القس على مر العصور. وإننا نحزر بسهولة ما الذي سينشأ عن ذلك مباشرة: «الخطيئة»... لقد ابتدع مفهوم الذنب والعقاب وكل «النظام الأخلاقي» *ضدا* للعلم،- ضد انعتاق الإنسان من سلطة القس... لا ينبغي للإنسان أن يَرى خارجا، بل أن يرى داخل نفسه، ولا ينبغي له أن ينظر إلى الأشياء كطالب معرفة بذكاء وفطنة وحذر، بل لا ينبغي له أن يرى أصلا: عليه أن *يتألم*... وعليه أن يظل يتألم على نحو يجعله دائم الحاجة إلى القس. ليذهب الأطباء إلى الجحيم! *إنما المرء بحاجة إلى مخلّص*. وقد تم ابتداع مفهوم الذنب والعقاب، وكذلك تعاليم «الرحمة» و«الخلاص» و«الغفران» -محض أكاذيب لا أثر لأية واقعية بسيكولوجية فيها- بهدف تدمير *الحس السببي* لدى الإنسان: اعتداء على مفهوم العلة والسبب! وليس اعتداء بقبضة اليد وبالسكين، ولا بالصدق في الكراهية والمحبة! بل من منطلق الغرائز الأكثر دناءة والأكثر جبنا ومكرا! اعتداء قسّ! اعتداء *كائن طفيليّ*! «فامبيريّةُ» مصاصاتِ دماء ديْماسية شاحبة... عندما تصبح النتائج الطبيعية

لعمل ما غير «طبيعية»، ليتم تمثلها كمفعول من مفاعيل أشباح التطيّر، كعمل من صنيع «الرب»، و«الأرواح» و«الأنفس»، كمجرد تبعات «معنوية»، كأجر أو عقاب أو إشارة إنذار أو وسيلة تربية، عندها يكون قد تم تدمير الشرط الضروري للمعرفة،- وهكذا *يكون قد تم ارتكاب أعظم جريمة في حق الإنسانية*. - ومرة أخرى، لقد تم ابتداع الخطيئة، ذلك الشكل الأمثل لتدنيس الإنسان، بهدف جعل العلم والثقافة وكل سمو بالإنسان وكل نبالة أمرا مستحيلا؛ لقد *بسط القس سلطان سيادته* بواسطة ابتداع الخطيئة. -

٥٠

لن أفوّت عند هذه النقطة فرصة القيام بتحليل نفسي لـ «الإيمان» و لـ «المؤمنين» سيكون بطبيعة الحال لصالح «المؤمنين» بالذات. إذا ما كان هناك اليوم عدد غير قليل من الناس ممن ما زالوا لا يعرفون كم هو غير لائق أن يكون المرء «مؤمنا»- *أو* أن ذلك علامة انحطاط وإرادة حياة منكسرة-، فلسوف يعرفون ذلك غدا بكل تأكيد. إن صوتي يبلغ حتى أولئك الذين لا يسمعون جيدا.

هناك لدى المسيحيين على ما يبدو، إن لم أكن قد سمعت بشكل سيء، ضرب من معيار للحقيقة يدعى «الحجة الدامغة»(*) ومفادها: «الإيمان يجعلنا سعداء؛ إذن فهو حقيقي». لكن يمكننا

(*) حرفيا: حجة القوّة.

منذ البداية أن نعترض هنا بأن هذه السعادة بالذات غير مثبتة، بل هي موعودة ليس إلا: السعادة مرتبطةً بشرط «الإيمان»، -لا بد أن يكون الإنسان سعيدا *لكونه* مؤمنا. . . أما إن كان سيتحقق بالفعل ذلك الذي يعد به القس المؤمنين من آخرة تستعصي كليا على الإثبات، فأي أمر يمكنه أن يقيم الدليل على *ذلك*؟ و«الحجة الدامغة» المزعومة لا تعدو كونها هي الأخرى مجرد الإيمان بأن النتيجة التي يعد المرء نفسه بها من وراء الإيمان ستتحقق. أو بصياغة المبدأ العام: «أعتقد أن الإيمان يجعل المرء سعيدا، *وبالتالي* فهو حقيقي.» -لكننا بهذا نكون قد بلغنا النهاية، ولاشيء بعدها. وهذه الـ«بالتالي» ستكون الخُلْف عينَه متحولا هنا معيارا للحقيقة.

لكن لنفترض مع ذلك بشيء من التسامح أن تحقيق السعادة عن طريق الإيمان أمر مثبت -*وليس* مجرد أمر مرغوب، *وليس* مجرد وعد جاء على الفم المريب وعديم المصداقية لقسٍّ، فهل ستكون السعادة -أوالغبطة، كي نتكلم لغة تقنية، برهانا على الحقيقة أصلا؟ إن ذلك من المستبعد جدا، بما يجعل إقحام الأحاسيس المتعوية في مجال السؤال عن «ما هو حقيقة» يمنحنا دليلا معاكسا تقريبا، وفي كل الأحوال ريبةً متناهية تجاه «الحقيقة». إن دليل «المتعة» هو دليل على «المتعة»- ولا شيء غير ذلك؛ فأي شيء في العالم يثبت لنا بأن الأحكام الحقيقية تجلب أكثر متعة من الأحكام الخاطئة، وأنها وفقا لتناغم محدد مسبقا تحمل معها بالضرورة مشاعر مريحة؟ -إن تجربة كل العقول الصارمة والعميقة تنبئنا بعكس *ذلك*. لقد كان على

الإنسان أن يصارع بكل شراسة من أجل كل شبر من الحقيقة، وكان عليه أن يضحي من أجل ذلك بكل شيء تقريبا مما يتعلق به قلبنا في الحياة، وما يتعلق به حبنا وثقتنا. لا بد من الكثير من سمو النفس لهذا الغرض؛ فخدمة الحقيقة هي الخدمة الأكثر مشقة. ما ذا يعني أن يكون المرء *نزيها* في مجال الأمور العقلية؟ أن يكون المرء صارما مع نفسه، أن يحتقر المرء «الأحاسيس الجميلة»، وأن يجعل لنفسه من كل نعم ولا قضية ضمير!

--- الإيمان يجلب السعادة؛ وبالتالي فهو كاذب...

٥١

كون الإيمان يمكن أن يكون مصدرا للسعادة في حالات بعينها؛ وكون السعادة لم تفلح بعد في أن تجعل من فكرة راسخة في التداول فكرة صحيحة؛ وكون الإيمان لا يحوّل جبالا، بل يضع جبالا حيث لا وجود لجبال: تكفي جولة سريعة داخل مصحة عقلية كي يتضح لنا هذا الأمر بما فيه الكفاية؛ لكنها لن توضح ذلك لقس، لأن هذا الأخير ينكر غريزيا أن المرض مرض، وأن مصحة المجانين مصحة مجانين. فالمسيحية بحاجة إلى المرض، تقريبا بمقدار ما كانت الحضارة اليونانية بحاجة إلى فائض من الصحّة؛ إن إصابة الإنسان بالمرض هي النية المضمرة الحقيقية التي تحرك مجمل نظام الإجراءات العلاجية للكنيسة. والكنيسة نفسها، أليست مأوى المجانين الكاثوليكي في هيأة مثال أعلى؟ -الأرض بكليتها كمأوى لمجانين؟ والإنسان المتدين كما تبتغيه الكنيسة هو نموذج المنحط. إن اللحظة التي تصبح فيها

أزمة دينية سيدة على شعب ما تتخذ لها علامة مميزة في كل مرة من خلال جائحة عصبية؛ و«العالم الباطني» للإنسان المتدين شبيه حد التماهي بالعالم الباطني للمصابين بالتهيج المفرط والمنهكين. والحالات «السامية» التي علقتها المسيحية كقيمة القيم فوق رأس الإنسانية هي أشكال صرع،- لم تكرس الكنيسة برفعة المجد الإلهي غير مجانين أو كبار محتالين... لقد سمحت لنفسي ذات مرة بأن نعتّ مجمل تمارين الكفّارة والخلاص المسيحية (التي يمكن دراستها اليوم على أفضل وجه في أنكلترا) بـ *Folie circulaire*(*)- الجنون الدوري الذي يتم إنتاجه بصفة منهجية على أرضية معدّة لذلك بطبيعة الحال؛ أي أرضية مريضة في جوهرها. ليس لأحد خيار في أن يغدو مسيحيا: ما من عمل «هداية» يسوق المرء إلى المسيحية؛ لابد أن يكون المرء مريضا بما فيه الكفاية كي يغدو مسيحيا... أما نحن، نحن الذين نمتلك *الشجاعة* لإرادة الصحة، وللاحتقار أيضا، لكم سيكون لنا الحق في أن نحتقر ديانة تعلّم الازدراء بالجسد! ديانة لا تريد التخلص من المعتقد السخيف المتعلق بالروح! والتي تجعل من سوء التغذية «فضلا»! والتي ترى في العافية عدوا وشيطانا وغواية تنهض لمحاربتها! ديانة قد أقنعت نفسها بأنه بإمكان المرء أن يحمل روحا «كاملة» داخل جسد أشبه بالجثة، وكان عليها بموجب ذلك أن تبتدع لنفسها إذن مفهوما جديدا لـ«الكمال»: كيان شاحب مريض محلق بسخافة في

(*) بالفرنسية في النص الأصلي.

الأوهام، تلك هي «القداسة» المزعومة؛- قداسة ليست في حد ذاتها سوى حشد أعراض لجسد مفرغ منهك الأعصاب وعلى درجة من الفساد تستعصي على العلاج!... والحركة المسيحية، كحركة أوروبية، كانت منذ البدء حركةً جامعةً لعناصر الحثالة والنفايات من كل نوع: هذه الحركة تريد السلطة عن طريق المسيحية. وهي لا تعبر عن انحطاط جنس بعينه، بل هي بؤرة لتجمع أشكال انحطاط متنوعة ومن كل الأصقاع تناشد بعضها وتنزع إلى التلاحم. *وليس* الفساد الذي طرأ على الحضارات العتيقة، تلك الحضارات العتيقة السامية، هو الذي قاد إلى ظهور المسيحية كما يسود الاعتقاد: ولن نكون صارمين بما فيه الكفاية في مناقضتنا بحدة لسخافة العلماء التي ما زالت متمسكة بمثل هذه الفكرة إلى يومنا هذا. ففي الوقت الذي راحت فئات الشاندالا المريضة في كل مكان من الإمبراطورية تنضم إلى المسيحية كان *النمط النقيض*، نمط الرفعة والنبالة في أبهى وأنضج تجلياته. لكن السواد الأعظم غدا سيدا؛ والمنحى الديمقراطويّ للغرائز المسيحية قد حقق *انتصاره*... لم تكن المسيحية ذات طابع قومي ولا هي محددة عرقيا؛ إنها تتجه بدعوتها إلى كل رهط من المحرومين الذين لم ينالوا نصيبهم من الحياة؛ وكان لها حلفاء في كل مكان. لقد جعلت المسيحية من ضغينة المرضى وغريزة معاداة المعافين ومعاداة الصحة السليمة أساسا لها. كل ما هو موفَّق التكوين، ذي كبرياء ومعتدّ بنفسه، والجمال في المقام الأول يؤلم عينها وأذنها. ومرة أخرى أذكّر بهذه المقولة ذات الأهمية البالغة لبولس: «لقد اختار الله ضعفاء

العالم وفضّلهم، واختار الجهّال وأدنياء العالم والمزدرى بهم وفضّلهم.»[٥٧]: تلك كانت القاعدة، وتحت هذه العلامة - *in hic signo* - كان انتصار الانحطاط.

الرب على الصليب، ألم نفهم بعد الفكرة الفظيعة المستترة وراء هذا الرمز؟ كل ما يتألم وكل ما هو معلق على الصليب مقدّس... كلنا معلقون على الصليب، وبالتالي فنحن مقدّسون... نحن وحدنا المقدّسون... لقد كانت المسيحية انتصارا، ومعها عرف عقلٌ نبيلٌ أرفع مقاما نهايته؛ لقد كانت المسيحية أكبر كارثة عرفتها الإنسانية إلى حد الآن. --

٥٢

تقف المسيحية موقف النقيض من كل عقل سليم التكوين، - العقل المريض وحده هو الذي يصلح في عينيها أن يكون عقلا مسيحيا، تناصر كل ما هو سخيف، وتعلن لعنتها على «العقل»، وعلى اعتداد العقل السليم. ولأن المرض من المكونات الجوهرية للمسيحية، فإنه ينبغي على الحالة المسيحية النمطية أيضا، وعلى «الإيمان»، أن تكون شكلا من أشكال المرض، وأن تقابَل كل السبل العلمية النزيهة والمستقيمة بالرفض من قبل الكنيسة كسبل ممنوعة؛ ومجرد الشك في حد ذاته خطيئة... إن

---

(٥٧) (رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس: ١/ ٢٧ بتصرف من نيتشه. والمقولة كما ترد في كتاب العهد الجديد هي كالآتي (١/ ٢٧-٢٨): «بل اختار الله جهّال العالم ليخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمُزدرى وغيرَ الموجود ليبطل الموجود.»

الغياب الكامل للنقاوة البسيكولوجية لدى القس-الذي يفضح نفسه في نظرته- هو نتيجة للانحطاط -، وعلى المرء أن يراقب النساء الهستريات وكذلك الأطفال المصابين بالشلل كي يلاحظ إلى أي حد يغدو الزيف الغريزي ومتعة الكذب من أجل الكذب، وعدم القدرة على النظر والمشي على نحو مستقيم تعبيرات قارة عن الانحطاط. إن «الإيمان» يعني أن لا يريد المرء معرفة ما هو حقيقي. التقَويّ، والقس من كلي الجنسين مزيّف، لأنه كائن مريض: غريزته *تتطلب* أن لا يكون للحقيقة من اعتبار في أي موضع. «ما يجعل الإنسان مريضا فهو خير، وكل ما يأتي من الامتلاء وزخم الامتلاء ومن القوة فهو شرّ»: هكذا يكون إحساس المؤمن. *الكذب* بسبب *العجز* عن عدم *الكذب*؛ تلك هي العلامة التي أميز بها كل شخص مهيئ ليكون لاهوتيا. علامة أخرى مميزة للاهوتي هي *انعدام المؤهلات الفيلولوجية* لديه. والفيلولوجيا (فقه اللغة) تعني هنا بالضرورة، وبمعنى غاية في العمومية، فن القراءة الجيدة؛ أن يكون المرء قادرا على قراءة الأشياء دون تزويرها بواسطة التأويل، ودون أن يفرّط المرء تحت إلحاح رغبة الفهم في الحذر والصبر والدقة المرهفة. الفيلولوجيا كمنحى ريبيّ في التأويل؛ سواء تعلق الأمر بكتب، بأنباء توردها الصحف، بمصائر، أو بمسائل مناخية ، -وما بالك بما يتعلق بـ«خلاص الروح»... إن الطريقة التي يتأول بها لاهوتي سواء من برلين أو من روما «كلمة من الكتاب» أو حدثا، على سبيل المثال انتصار الجيش الوطني، على ضوء الإحالة السامية على مزامير داوود لَتبدو دوما على غاية من الجسارة تجعل كل عالم

فيلولوجيّ يخبط برأسه على الحائط. وماذا عساه يفعل عندما يعمد متّقون وأبقار شوابية أخرى(*) إلى جعل الرتابة البائسة لوجودهم وعطن ركوده تتحول بفضل بركة «اليد الإلهية» إلى آية من آيات «الرحمة»، و«عناية إلهية»، و«تجربة خلاص»! لقد كان بإمكان قدر متواضع من الجهد العقلي، كي لا نتكلم عن الاستقامة، أن يقنعهم بمدى صبيانية وعدم لياقة مثل هذا الاستعمال المغرض للبراعة الإلهية. وبقدر أقل من ذلك من ورع يحمله المرء في داخله سيبدو لنا إلها يشفي من نزلة برد في الوقت المناسب، أو يدفع إلى الاحتماء داخل عربة في اللحظة التي ينفجر فيها وابل من المطر إلها على درجة من السخافة والعبثية سيكون على المرء أن يلغيه، حتى وإن كان موجودا. إله كخادم، وكساعي بريد وبائع رزنامات، -كلمة في الحقيقة للتعبير عن النوع الأكثر سخفا من المصادفات . . . إن «العناية الإلهية» كما يؤمن بها اليوم ما يقارب ثلث «ألمانيا العالمة» ستكون حجة كما لا يمكن أن نتصور من الحجج ضد الله. وفي كل الأحوال هي حجة ضد الألمان! . . .

٥٣

اعتبار الشهيد حجة على صحة قضية ما أمرٌ ليس له ذرة من الصحة، مما يجعلني أميل إلى إنكار وجود شهيد واحد كانت له علاقة ما بالحقيقة. وإن النبرة التي يقذف بها شهيد بما يعتقده

(*) أنظر الهامش (*) من الفقرة ١٠.

حقيقة في وجه الناس لهي في حد ذاتها تعبير عن مستوى متدنّ من النزاهة الفكرية، وعن لامبالاة بالحقيقة، بما يجعلنا في غنى عن دحض حجة الشهيد. فالحقيقة ليست شيئا يمتلكه هذا ولا يمتلكه آخر: ليس هناك في أقصى الحالات سوى فلاحين، أو حواريّين فلاحين من نوع لوثر، ممن يمكنهم أن يفكروا بهذه الطريقة. وإنه بوسعنا أن نكون على يقين من أنه بقدر ما نرتقي درجة في صرامة الضمير بخصوص المسائل العقلية، بقدر ما يرتفع مستوى التواضع و*الاعتدال* في هذا الأمر. أن يكون المرء *عارفا* في خمس مسائل، ويدفع عنه بلطف أن يعرف في *ما عداها*...

«الحقيقة» كما يفهمها كل نبي، وكل طائفي، وكل «مفكر حر»، وكل اشتراكي، وكل رجل كنيسة هي الدليل القاطع على أننا لم نشرع بعد في تلك التربية العقلية وفي مغالبة النفس التي يتطلبها السعي إلى بلوغ أية حقيقة مهما كانت صغيرة، مهما كانت متناهية في الصغر. لقد كان الشهداء، لنقلها عرضا، كارثة كبرى في تاريخ البشرية: *كان لهم مفعول الغواية*... إن الاستنتاج الذي يتوصّل إليه كل السخفاء، بما في ذلك النساء والشعب، بأن قضية يضحي المرء من أجلها بحياته (أو تثير جائحة تضحية بالنفس كما حدث مع المسيحية في عصرها المبكر) لا بد أن تكون على قدر من الأهمية والحقيقة. هذا الاستنتاج يمثل عائقا هائلا أمام عمل التقصي وروح التدقيق والحذر. لقد *أضر* الشهداء بالحقيقة... وحتى يومنا هذا فإن عملية اضطهاد حادة تظل كافية لكي تغمر طائفة غير ذات أهمية

في الحقيقة بألقاب *المجد والشرف*.[٥٨] -ماذا؟ هل يطرأ تغيير في قيمة قضية لأن شخصا ما قد ضحى بحياته من أجلها؟ -إن خطأ يتحوّل إلى شيء مجيد هو خطأ ينطوي على قدر أعلى من سحر الغواية: أتعتقدون أننا سنمنحكم مجالا أيها السادة اللاهوتيون، كي تلعبوا دور الشهداء من أجل أكاذيبكم؟ إن دحض مسألة ما لا يتم على أفضل وجه إلا من خلال تجاهلها بكل احترام، -وبالطريقة نفسها يتم دحض اللاهوتيين. والغباء التاريخي لكل المضطهِدين (بالكسر) يتمثل بالذات في أنهم كانوا يمنحون القضايا المناهضة فرصة للظهور بمظهر القضايا المجيدة، وذلك بمنحها هدية سحر الشهادة... وهاهي النساء مازالت تجثو على ركبتيها أمام خطأ قيل لهن بأن شخصا قتل على الصليب من أجله. *هل الصليب إذن حجة؟* -

لكن واحدا فقط قد جاء ليقول بشأن كل هذه الأشياء تلك الكلمة التي ظلت منتظرة منذ آلاف السنين- إنه *زرادشت*.[٥٩]

«علامات من دم خطّوا على الطريق التي سلكوها، وكانت حماقتهم تعلّم أنه بالدم تتم إقامة الدليل على الحقيقة.

لكن الدم أسوأ شاهد على الحقيقة؛ فالدم يسمّم أنقى

---

(٥٨) في دفاتر المسودات تحت شفرة W II 8, 117 نقرأ صياغة أولى لهذه الجملة: «وفي قرننا هذا أيضا فإن مثال كارليل يقدم لنا شاهدا على مدى ما تثيره وحشية وفظاظة التعذيب والإعدامات من تعاطف مع قضايا معينة وتتحول إلى مكسب لصالحها».

(٥٩) «هكذا تكلم زرادشت» -الكتاب الثاني؛ فصل «عن القساوسة».

التعاليم ويحولها إلى جنون وحقد يعمّران القلوب.

وإذا ما عنّ لأحد أن يقذف بنفسه في النار من أجل مذهبه، فعن أي شيء يبرهن ذلك؟» سيبرهن ذلك بالأحرى على أن لهب احتراقه هو الذي ينشأ عنه مذهبه.

٥٤

لا ندعنّ أنفسنا ننساق إلى الضلال؛ فالعقول العظيمة ريبيّة. وزرادشت ريبيّ. فالقوة و*الحرية* المتأتية من الطاقة وفائض طاقة العقل تفصح عن نفسها من خلال الريبة. وأصحاب القناعات لا يدخلون في الاعتبار البتة في كل ما يتعلق بمبدأ القيمة واللاقيمة. القناعات سجون. إنها لا ترى بما يكفي من البعد، ولا ترى إلى *ما تحتها*: لكن كي يحق لامرئ أن يدلي بدلوه في ما يخص مسائل القيمة واللاقيمة، عليه أن يكون قد غدا يرى خمسمائة قناعة من تحته؛-يراها *وراءه*... إن عقلا يرغب في ما هو عظيم، ويرغب في الوسائل الموصلة إلى ذلك، لهو عقل ريبي بالضرورة. التحرر من كل صنف من القناعات جزء من القوة؛ قدرة على النظر بحرية... والصبوة العظيمة، أساسُ وقوةُ كيان ذلك العقل، أكثر استنارة، وأكثر طغيانا مما هو عليه من استنارة وطغيان، توظف في خدمتها مجمل طاقاته العاقِلة وتجعله دون ورع؛ بل تمنحه حتى الشجاعة على اتخاذ الوسائل الأقل قداسة؛ وتسمح له في حالات بعينها بقناعات. القناعة كوسيلة: هناك الكثير مما لا يتوصل إليه المرء إلا بواسطة قناعة ما. والصبوات الكبرى تحتاج إلى قناعات وتستعملها، لكنها لا تخضع إليها؛

إنها تدرك أنها ذات سيادة. -عكس ذلك: إن الحاجة إلى إيمان، وإلى أي شيء بقطعيّةٍ نعم ولا، أي الكارليلية[٦٠] إذا ما سُمح لي باستعمال هذه العبارة، إنما هي حاجة متأتية عن *الضعف*. رجل العقيدة، والمؤمن من كل نوع هو بالضرورة إنسان غير مستقل بذاته، إنسان غير قادر على أن يجعل من نفسه هدفا، غير قادر أصلا على أن يرسم لنفسه ومن منطلق نفسه هدفا. «المؤمن» ليس مُلْكا *لنفسه*، ولا يستطيع إلا أن يكون وسيلة؛ ينبغي أن *يُستعمل*، وهو بحاجة دوما إلى أحد يستعمله. غريزته تغمر أخلاق نكران الذات بآيات الإكبار: كل شيء يدفعه إلى تلك الأخلاق، ذكاؤه وخبرته وغروره. كل نوع من الإيمان تعبير في حد ذاته عن نكران الذات وعن الاغتراب... وإذا ما قدّرنا مدى ضرورة وجود ضابط خارجي بالنسبة لأغلبية الناس، يوثق رباطهم ويثبّتهم، مثل الإكراه، أو بمعنى أرقى العبودية، التي تمثل الشرط الوحيد والأخير الذي ينتعش في ظله الإنسان ذو الإرادة الضعيفة، والمرأة بصفة خاصة؛ عندها سنفهم ماهي القناعة، وما هو «الإيمان». ذو القناعة يجد في قناعته عموده الفقري. الامتناع عن رؤية الكثير من الأشياء، أن لا يكون المرء مجردا من المسبقات في أي أمر، أن يكون منحازا كليا، وأن يكون ذا رؤية متشددة ولازمة بخصوص كل القيم- ذلك وحده هو الشرط الذي يقوم عليه وجود هذا النوع من الناس. غير أنه بذلك يكون النقيض و*الطرف المقابل* للإنسان الصادق؛-

---

(٦٠) أنظر «غسق الأوثان»: تسكعات رجل غير موافق للعصر؛ الفقرة ١٢.

للحقيقة... لكنّ المؤمن لا يملك أن يتفاعل بضمير مع مسألة ما هو «حق» وما «ليس بحق»: فالنزاهة في *هذا* الموقع ستعني مباشرة نهايته. إن المحدودية المرضية لرؤيته تجعل من ذي القناعة الراسخة متعصبا: سافوناورلا، لوثر، روسو، روبسبيير، سان سيمون- النموذج النقيض للعقل المتين والمتحرر[٦١]. لكن الهيآت الاستعراضية الكبرى لهذه العقول المريضة، هؤلاء المصابين بالصرع المفهومي، لها تأثير على كتلة الجماهير الواسعة،- فالمتعصبون جذّابون، والإنسانية تفضل الحركات الاستعراضية على الاستماع إلى *براهين*[٦٢]...

٥٥

خطوة أخرى على طريق سبر سيكولوجية القناعة، أي سيكولوجية «الإيمان». كنت منذ زمن طويل كنت قد انكببت على فحص مسألة إن لم تكن القناعات أكثر ضررا على الحقيقة من الأكاذيب (إنساني مفرط في الإنسانية).[٦٣] والآن أريد أن أطرح السؤال الحاسم: هل هناك من تناقض أصلا بين الكذب والقناعة؟ -العالم كله يعتقد في ذلك؛ لكن ما الذي لا يعتقد فيه كل العالم! -لكل قناعة تاريخها، أشكالها البدائية الأولى،

(٦١) جملة مشطوبة في هذا الموقع، نجدها في دفاتر المسودات W II 8,101: «الشيء الأكثر قرابة من القناعة هو الكذب.»

(٦٢) في المصدر المذكور أعلاه (هامش ٦٠) نقرأ في هذا الموقع جملة إضافية: «إن المتعصب كان على الدوام أخطر الكوابح التي تعيق المعرفة.»

(٦٣) أنظر «إنساني مفرط في الإنسانية» الشذرة ٥٤.

محاولاتها وكبواتها: وهي لا تتحول إلى قناعة إلا بعد أن تكون قد مرت بمرحلة *لم تكن* فيها كذلك بعد، ومرحلة أطول لم تكن فيها كذلك إلا بقدر *ضئيل*. ماذا؟ ألم يكن للكذب أيضا من مكان داخل هذا الشكل الجنيني للقناعة؟ أحيانا لا يُحتاج إلا إلى مجرد تغيير في الشخصيات: مع الإبن يغدو قناعةً ماكان كذباً مع الأب. أسمي كذبا أن لا نريد رؤية شيء يراه المرء، شيئا لا نريد أن نراه كما يراه المرء: أما أن يحدث الكذب أمام شهود أو من دون شهود فذلك ليس مهما. والكذبة الأكثر اعتيادا هي تلك التي يكذب إنسان فيها على نفسه؛ والكذب على الآخرين يعد نسبيا حالة استثنائية. لكن، أن لا نريد رؤية شيء يراه المرء، وأن لا نريد أن نراه كما يراه المرء، أليس هذا هو الشرط الأول لكل منحاز بأي معنى من المعاني؟ إن المنحاز يغدو بالضرورة كذابا. التأريخ الألماني على سبيل المثال على قناعة بأن روما كانت معقل الاستبداد وأن الجرمان هم الذين جلبوا روح الحرية إلى العالم: هل من فرق هناك بين هذه القناعة والكذب؟ أي غرابة سنجد بعدها إذن، إذا ما رأينا كل الأطراف المتحزبة بما في ذلك المؤرخون الألمان لا تكف ألسنتهم غريزيا عن ترديد العبارات الفخمة للأخلاق، بما يجعل الأخلاق لا تظل قائمة إلا لكون إنسان الانحياز من كل صنف يظل في حاجة إليها في كل لحظة؟ -«هذه هي قناعتنا: إننا نشهد بها أمام العالم بأكمله، وبها ومن أجلها نحيا ونموت. الاحترامَ والتقديرَ لكل من كان ذا قناعة!» - ولقد سمعت ذلك حتى على ألسنة المعادين للسامية. بل، كلا يا سادتي، إن معاد للسامية لن يغدو أبدا محترما لكونه يكذب عن

مبدأ. . . أما القساوسة الذين يمتازون بقدر أرفع من الرهافة في مثل هذه الأمور، والذين يدركون جيدا الخلل الذي يقطن فكرة القناعة، أي طابع الكذب المبدئي الذي تنطوي عليه، لكونها مسخّرة لخدمة غرض ما، فقد أخذوا عن اليهود حيلة الالتجاء إلى إقحام فكرة «الله» و«الإرادة الإلهية» و«الوحي الإلهي» في هذه المسألة. وقد مضى كانط أيضا، بمُلزِمه القطعي على نفس الطريق: هنا غدا العقل *عمليًا*.(*)-هناك مسائل لا يستطيع الإنسان أن يجزم فيها بما هو حق وما هو ليس بحقّ؛ كل الأسئلة الكبرى، وكل مسائل القيمة المهمة تقع فوق مقدرات العاقلة البشرية. . . أن ندرك حدود العقل، ذلك وحده هو ما يعد فلسفة حقا. . . وإلا لم أنزل الله الوحي على الإنسان؟ هل يعقل أن يكون الله قد قام بشيء فائض عن اللزوم؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف بنفسه ما هو خير وما هو شر، لذلك ينبؤه الله بإرادته. . . عبرة القول: القس لا يكذب؛ فالسؤال المتعلق بما هو «حق» وما هو «باطل» التي يتحدث عنها القس في هذا المجال لا تسمح البتة بالكذب. ذلك أنه ولكي نكذب، علينا أن نكون قادرين على تحديد *ما* هو حقّ. لكنّ ذلك هو ما لا يستطيعه الإنسان؛ وبذلك لا يكون القس سوى اللسان الناطق بكلمة الله. هذا القياس الكهنوتي ليس مجرد ظاهرة يهودية ومسيحية حصرا: فحق الكذب وحيلة «الوحي» هي من خصائص الكاهن عامة، كاهن الانحطاط مثله مثل كاهن الوثنية (الوثنيون

(*) إشارة إلى كتاب كانط الذي يحمل عنوان «نقد العقل العمَليّ» (م)

هم كل من يقولون نعم للحياة، و«الإله» لديهم هو الكلمة الي تعبّر عن نعم الإثبات الكبير لكل الأشياء). «الناموس»، و«الإرادة الإلهية»، و«الكتاب المقدس»، و«الوحي» كلها كلمات تعبّر عن الشروط التي يتمكن القس في *ظلها* من حيازة القوّة، وعن *طريقها* يتمكن من الحفاظ على السلطة؛ هذه المفاهيم تكوّن القاعدة التي تتأسس عليها كل المنظومات الكهنوتية وكل مؤسسات السلطة الكهنوتية أو السلطة الفلسفية الكهنوتية. و«الكذب المقدس» يمثل ظاهرة مشتركة بين كونفشيوس، وكتاب تشريعات مانو، ومحمد، والكنيسة المسيحية، ولا يشذ عنهم في ذلك أفلاطون أيضا. «هنا الحق»: ذلك يعني أنه حيثما يُنطق بها بصوت مرتفع، يكذب *القس*...

٥٦

وبالنهاية، إنما يتعلق الأمر بمعرفة الغاية التي يتم من أجلها الكذب. وكون المسيحية خالية من الغايات «المقدسة»، فذلك هو اعتراضي على وسائلها. لا شيء غير غايات سيئة: تسميم وافتراء على الحياة، نفي للحياة، تحقير وإهانة ذاتية يمارسها الإنسان على نفسه عن طريق الخطيئة،- *وبالتالي* فإن وسائلها سيئة هي أيضا. -لكنني بشعور مغاير تماما أقرأ كتاب تشريعات مانو، مؤلَّف ذو مستوى ذهني متميز ومرتبة راقية؛ ومجرد ذكره جنبا إلى جنب مع الإنجيل ليعدّ خطيئة في حق العقل. وإن المرء ليدرك بسرعة أن فلسفة حقيقية تكمن وراءه وفي داخله، وليس مجرد خليط يهوداني نتن تمتزج فيه الحاخامية بالمعتقدات

السخيفة،- إنه يمنح حتى أكثر الخبراء النفسانيين تشددا وانتقائية شيئا يرضي حاجتهم. ثم لا ننس المسألة الجوهرية، وهي ذلك الفرق الأساسي الذي يميزه عن كل نوع من الأناجيل، وهو أن الطبقات العليا والفلاسفة والمحاربين يجدون فيه ما يمكّنهم من بسط نفوذهم على كتلة العوام؛ قيم سامية في كل موقع، إحساس بالكمال، استجابة إثباتية للحياة، ابتهاج ظافر بالذات وبالحياة: - شمس ساطعة تغمر ذلك الكتاب بكليته. وكل المسائل التي تغمرها المسيحية بفجاجتها اللامتناهية: الإنجاب مثلا، والمرأة والزواج، تُتناول هنا بكثير من الجديّة، باحترام، وبمحبة وثقة. كيف يُسمح بأن يترك بين أيدي الأطفال والنساء كتاب يحتوي على مثل هذه العبارات البذيئة: «ولسبب العُهر ليكن لكل واحد امرأته ولكل واحدة رجلها: فالتزوّج أفضل من التحرُّق.»[٦٤] وهل يحق للمرء أن يكون مسيحيا طالما ظلت ولادة الإنسان تُنصَّر، أي *تلوّث* بمفهوم *الحبَل* بلا دنس؟...

لا أعرف كتابا يحتوي على مثل هذا الكم من الأقوال اللطيفة والإيجابية بشأن المرأة مثل ما يوجد في كتاب تشريعات مانو؛ لقد كان لأولئك الشيوخ ذوي اللحي البيضاء والقديسين من اللطافة والكياسة تجاه المرأة ما لا يوجد له من مضاهٍ. «إن فم امرأة -يقول الكتاب- وثدي فتاة، وصلاة طفل، وبخور القرابين أشياء طاهرة دوما.» وفي موقع آخر: «ليس هناك ما هو أكثر

(٦٤) أنظر رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس ٧/ ٢-٩: «ولسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته ولكل واحدة رجلها». نلاحظ هنا بعض فوارق بين الترجمة العربية والترجمة الألمانية لمارتن لوثر من جهة، وصياغة نيتشه.

طهارة من نور الشمس وظل بقرة والهواء والماء والنار وأنفاس فتاة.» وإليكم أخيرا مقطعا آخر -لعلها أيضا كذبة مقدسة-: «كل فتحات الجسد مما فوق السرة طاهرة، وكل ما هو دونها نجس. لدى الفتاة فقط يكون الجسد بكليته طاهرا.»

٥٧

سنضبط وسائل المسيحية متلبسة بـ*لاقداستها* عندما نقيس *الغاية المسيحية* بالغاية التي يناشدها كتاب تشريعات مانو، -عندما نُخضع هذا التباين الهائل في الغايات لإنارة كاشفة. عندها لن يكون بوسع ناقد المسيحية أن يمتنع عن تحقير المسيحية. إن كتاب تشريعات مثل كتاب مانو، وككل كتاب تشريعات جيّد، يلخّص مجمل التجربة والفطنة والأخلاق الخُبريّة لآلاف السنين؛ إنه يختم، ولا يبتدع شيئا. تقنين من هذا النوع يشترط إدراكا بأن الوسائل الضرورية لمنح حقيقة تم اكتسابها عبر سيرورة بطيئة ومكلّفة تختلف في جوهرها عن تلك التي ستُعتمد للبرهنة على تلك الحقيقة. إن كتاب تشريعات لا يستعرض البتة الأغراض والأسباب والإفتاءات التي تُكوّن التاريخ القبلي لقانون ما: بل ذلك سيجعله يفتقد نبرته الإلزامية، أمر الوجوب «ينبغي عليك» الذي يكوّن الشرط الذي يضمن له أن يكون مطاعا. إن المشكلة تكمن هنا بالذات. -فعند بلوغ نقطة محددة من تطور شعب ما تنهض الفئة الأكثر فطنة، أي تلك التي باستطاعتها أن تحتضن برؤيتها الماضي والمستقبل أكثر من غيرها، لتقرّر بأن مرحلة التجربة التي تحدد الطريقة التي ينبغي -أي يمكن- أن يعيش

المجتمع وفقا لها- قد انتهت. وسيكون هدفها إذن أن تجني من فترة التجريب، ومن التجارب *السلبية* الحصاد الأكثر وفرة وكمالا. وبالتالي فإن ما سيكون عليها ان تتفاداه الآن بالمقام الأول هو مواصلة التجريب، واسترسال حالة عدم استقرار القيم، ومواصلة الفحص والتدقيق والاختيار والنقد إلى ما لانهاية. لهذا الغرض سيوضع أمام هذه السيرورة جداران، أولهما هو *الوحي*، وهو الادعاء بأن حكمة تلك القوانين لا تعود إلى مصدر بشري، ولا هي قد تم التوصل إليها عبر مسيرة بطيئة من البحث والأخطاء، بل هي متأتية عن مصدر إلهي، مكتملة، كاملة، دون تاريخ، هبةً ومعجزةً يتم إبلاغها للناس لا غير... بعدها يتدخل *الموروث*، بما معناه أن الناموس قائم الوجود منذ غابر العصور، وأنه سيكون قلة ورع، وإجراما في حق السلف أن نضعه موضع السؤال. هكذا تتأسس سلطة الشرع على أطروحتيْ: الله قد سنّه، والسلف قد *عاش بمقتضاه*. والغاية الجوهرية لهذا الإجراء تكمن في المقصد الذي يطمح إلى جعل الوعي بما غدا معترفا به كحياة على النحو القويم (أي تلك التي تم *إثباتها* عبر تجربة واسعة ومغربلة بدقة متناهية) يتراجع شيئا فشيئا ليفسح المجال لسيادة كلية لآلية الغرائز-الشرط الأول لكل براعة، وكل كمال في فن تصريف الحياة. إن وضع كتاب تشريعات من النوع الذي وضعه مانو يعني أن تمنح لشعب ما إمكانية أن يصبح بارعا، أن يغدو كاملا، وأن يطمح إلى أرقى درجات الفنّ الحياتي. *ولهذا الغرض لا بد أن يجرّد من الوعي*: تلك هي غاية كل كذبة مقدّسة.

إن نظام الطبقات، أي القانون الأرقى والمهيمن، إنما هو تجسيد إقرار بالـ*نظام الطبيعي*، قانون طبيعي من درجة عليا لا سلطة لأية إرادة اعتباطية وأية «فكرة حداثية» عليه. في كل مجتمع سليم تنفصل، فيما هي تتبادل التأثيرات والتفاعل، ثلاث نماذج تتحرك فزيزلوجيا داخل مدارات مختلفة، لكل منها نظامه الصحي، وميدان عمله الخاص، ونمط إحساسه الخاص بالكمال والبراعة. إن الطبيعة، وليس مانو، هي التي تفرق بين ذوي التفوق العقلي وذوي التفوق العضلي والمزاج القوي، وأولئك الذين لا هم من ذوي هذا التفوق ولا ذاك، وهم الرديئون،- وتمثل الفئة الأخيرة العدد الأكبر، أما الأولى فهي النخبة. الطبقة العليا-وأسميها *الأقلية*- تمتلك أيضا كنوع كامل، الامتيازات التي للأقلية، من ذلك أنها هي التي تجسد السعادة والجمال والخير على وجه الأرض. فذوي العقل وحدهم لهم الحق في الجمال، في الجميل عامة: لدى هؤلاء فقط لا يكون الخير ضعفا. *Pulchrum est paucorum hominum*(٦٥) - إن الخير امتياز-. وبالمقابل ليس هناك من شيء ينكر على هؤلاء مثل السلوكات القبيحة أو نظرة متشائمة، عينا تغمر *الأشياء بالقبح*، بل وحتى الاستياء من المظهر العام للأشياء. فالاستياء امتياز خاص بالشاندالا؛ وكذلك التشاؤم. «*العالم قد بلغ الكمال*»(٦٦) هكذا تتكلم غريزة ذوي العقول الراقية، الغريزة التي تقول نعم، ذلك

---

(٦٥) هوراس، «المهجيات» I, 9, 44 «الجمال امتياز خاص بالأقليّة»

(٦٦) أنظر زرادشت؛ الكتاب الرابع: الظهيرة.

أن النقص، وكل ما هو تحت *منزلتنا* من كل صنف، والمسافة، وحس المسافة، وحتى الشاندالا نفسها، كلها من مكوّنات هذا الكمال هي أيضا.» إن ذوي العقول الراقية، بما هم *الأقوى*، يجدون غبطتهم في كل ما سيجد فيه آخرون هلاكهم: في المتاهة، وفي الشدة مع النفس ومع الآخرين، وفي المحاولة؛ متعتهم في مغالبة النفس، والتبتلُ يغدو لديهم طبعا، وحاجة، وغريزة. المهام الشديدة تتراءى لهم امتيازا خُصّوا به دون غيرهم، واللعب بتحمل أعباء ثقيلة يهلك تحت وطأتها غيرهم *راحةً*... إن المعرفة ضرب من التبتل. هؤلاء هم النوع الأجلّ من الناس؛ وهذا لا يمنع كونهم الأكثر مرحا أيضا والأكثر لطفا. وهم لا يسيطرون رغبةً منهم في السيطرة، بل لأنهم هم؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا أصحاب المرتبة الثانية. أصحاب المرتبة الثانية هم حراس القانون، والقائمون على حماية النظام والأمن، ونبلاء المحاربين؛ إنه *الملك* في المقام الأول، الشكل الأرقى للمحارب والقاضي والحافظ للقانون. أصحاب المرتبة الثانية هم منفذو إرادة ذوي العقول الأرقى، وهم الفئة الأقرب إليهم، والذين يحملون عنهم وزر المهام الخشنة في عمل السيادة:- هم تابعوهم ويدهم اليمنى، وأفضل تلامذتهم. وفي هذا كله، لنعيدها مرة أخرى، ليس هناك شيء من تعسف، ولا شيء من تصنّع؛ بينما ما هو مغاير هو المصطنع،- وبه تتم الإساءة إلى الطبيعة...

إن نظام الطبقات، *نظام تراتب المنزلات*، ليس سوى ترجمة عن القانون الأعلى للحياة نفسها، والفصل بين النماذج

الاجتماعية الثلاثة ضروري لضمان بقاء المجتمع، ولتحقيق أنماط أرقى، بل أرقى الأنماط. وعدم *تساوي* الحقوق هي الشرط الأول لكي توجد حقوق أصلا. كل حق هو امتياز. ولكل في وجوده النوعي الخاص به امتيازه أيضا. ولا نقلّلنّ من شأن امتيازات *الرديئين*. فالحياة كلّما ارتقت باتجاه *الأعالي* إلا وغدت أكثر فأكثر شدة؛ البرودة تزداد حدّة، والمسؤولية ترتفع. إن ثقافة عليا تكون على شكل هرم، ولا يمكنها أن تقوم إلا على قاعدة عريضة، وهي مشروطة بوجود رداءة متينة وثابتة الدعائم. إن الأعمال الحرفية، والتجارة وأعمال الزراعة والعلوم وجزء كبيرا من الفنون، وفي كلمة واحدة كل ما ينضوي تحت مفهوم الأعمال المهنية لا تتلاءم قطعا إلا مع مستوى متواضع في القدرات والرغبات؛ وسيكون مثل هذا الأمر غير مناسب لدى الكائنات الاستثنائية، ذلك أن الغريزة المناسبة لذلك ستكون في تعارض مع الأرستقراطية والفوضوية على حد السواء. فلكي يكون الواحد منفعةً عمومية، دولابا، ووظيفة لا بد أن تكون له مؤهلات طبيعية لذلك: ليس المجتمع، بل نوع *السعادة* التي في متناول الأغلبية هي التي تجعل منهم آلات ذكية. فالرديئون يجدون سعادتهم في أن يكونوا رديئين: البراعة في شيء محدد، والتخصص غريزة طبيعية. وسيكون من غير اللائق بالمرة بعقل عميق أن يرى في الرداءة في حد ذاتهاعيبا. فهي الشرط الضروري *الأول* لإمكانية وجود استثناءات: وكل ثقافة عليا مشروطة بوجودها. وعندما يتعامل إنسان الاستثناء مع الرديئين باالذات بنفس اللطف الذي يتعامل به مع نفسه وأشباهه، فإن

ذلك ليس لمجرد رقة قلب. إنه بكل بساطة *واجبه*. . .

من الذين أمقتهم أشد ما أمقت من بين رعاع اليوم؟ الرعاع الاشتراكي، ودعاة الشاندالا الذين يخربون غريزة ومتعة العامل وشعوره بالرضا بوجوده المتواضع؛ الذين يجعلونه حسودا ويعلمونه الحقد. . .

إن الحيف لا يكمن البتة في عدم تساوي الحقوق، بل في المطالبة بـ«مساواة» الحقوق. . .

أي شيء يعد سيئا؟ لكنني قد قلت ذلك من قبل: كل ما يتأتى من الضعف، ومن الحسد، ومن *الانتقام*. -إن الفوضوي والمسيحي من أصل واحد. . .

٥٨

وفي الواقع إن أهمية الأمر تكمن في اختلاف الأغراض المنشودة من وراء الكذب: إن كان المبتغى من ورائه الحفظ والصيانة أم التدمير؟ وهنا يحق لنا أن نقر بتشابه كلي بين *المسيحي* والفوضوي؛ فغرض كليهما وغرييزته تتجه كليا إلى التدمير. وعلينا فقط أن نلقي نظرة على التاريخ كي نقرأ فيه الدليل على هذا الطرح: إنه يعرض علينا هذا الأمر بوضوح شنيع. لقد تعرفنا قبل حين على تشريع ديني يتمثل الشرط الأرقى لازدهار الحياة لديه في تثبيت و«تخليد» نظام اجتماعي راق، أما المسيحية فقد جعلت رسالتها في الإجهاز على مثل هذا النظام بالذات وإبادته، *لأنه يضمن ازدهار الحياة*. في الحالة الأولى كان

الاهتمام متجها نحو استثمار رصيد التراكمات العقلية لعصور طويلة من التجريب والتردد لفائدة منفعة مستقبلية طويلة المدى، وجني أوفر وأثرى وأكمل ما يمكن من حصاد لذلك الغرض. أما في الحالة الثانية فقد تم تسميم الحصيلة بين ليلة وضحاها... ما كان قائما هناك *aere perennuis*(*)، أي *الإمبراطورية الرومانية*، الشكل التنظيمي الأعظم مما وجد إلى حد الآن، وفي ظروف غاية في الصعوبة، والذي يتراءى كل ما سبقه وما لحقه من الأشكال التنظيمية، مقارنة به، مجرد خَرْق صبيان ومحاولات هواة، -أولئك الفوضويون المقدسون قد جعلوا «تقواهم» في أن يأخذوا على عاتقهم مهمة تدمير «الدنيا»، أي الإمبراطورية الرومانية، حتى لم يتبقّ منها حجر على حجر، -وحتى غدا بإمكان كل فظ خشن، بما في ذلك الجرمان وبرابرة آخرون أن يصبحوا أسيادا عليها...

المسيحي والفوضوي: كلاهما منحطان، وكلاهما عاجزان، عدا أن يفعلا فعل هدّاميْن، ومسمميْن، وعنصريْ ذبول وهزال، ومصّاصي دماء؛ صورتان كلاهما لغريزة *العداوة القاتلة* ضد كل ما هو قائم وعظيم، وكل ما يحمل عناصر الديمومة وما يعد بمستقبل للحياة... لقد كانت المسيحية مصاصّ الدماء الذي سلّط على الامبراطورية الرومانية؛ -محت بين عشية وضحاها العمل الهائل الذي أنجزه الرومان من تهيئة أرضية لحضارة عظمى ما يزال *لها* متسع من *الوقت* أمامها. أما فهمنا هذا الأمر بعد؟ إن

(*) «أكثر صلابة من البرونز.» هوراس : الأناشيد III, 30, 1

الإمبراطورية الرومانية التي نعرفها، والتي مازال تاريخ مقاطعاتها ينبئنا كل يوم أكثر بأن ذلك العمل الفني الرائع وذي الطراز الرفيع لم يكن سوى بداية، وقد حُسب لبنائه أن يظل يشهد على عظمته لآلاف السنين. وإلى يومنا هذا لم يشيّد ما يماثله، ولا حتى خامر الناس الحلم بأن ينجزوا، وبذلك الحجم، بناء *sub specie aeterni*(*)! وقد كان ذلك التنظيم على غاية من المتانة والثبات كي يستطيع تحمل وجود قياصرة سيئين: لا ينبغي أن يكون لمصادفات الأشخاص دور في مثل هذه الأمور، -ذلك هو المبدأ الأول لكل معمار عظيم. غير أنها لم تكن على قدر كاف من المتانة كي تصمد في وجه *أكثر أنواع الفساد فسادا*: في وجه *المسيحيين*. تلك الأرضة السرية التي تسللت تحت لحاف الظلام والضباب والالتباس إلى كل فرد، ومن كل فرد قد اجتثت الجدية التي كان يأخذ بها الأشياء الحقيقية، بل غريزة الحس بالواقع؛ تلك الزمرة من النسويين الجبناء ذوي الرقة الزائفة المتملّقة قد توصلت شيئا فشيئا إلى جعل ذلك المعمار الهائل يغدو غريبا عن «الأنفس»، -تلك الطبائع الذكورية النبيلة التي كانت تعيش قضية روما كقضيتها الخاصة، وجديتها الخاصة، وفخرها الخاص. أحابيل مرائين ومكر رهبان، ومفاهيم قاتمة مثل الجحيم والتضحية بالبريء والاتحاد الروحاني عبر شرب الدم، وبخاصة نار الانتقام التي تشحذ جذوتها ببطء: انتقام الشاندالا، -كلها غدت سيدة على روما؛ الديانة نفسها التي كان أبيقور قد حاربها

(*) بهيأة الجوهر الخالد.

في شكلها الجنيني البدئي. لنقرأ لوكريتيوس[٦٧] كي ندرك أن ما حاربه أبيقور لم تكن الوثنية، بل «المسيحية»، أعني بذلك فساد الأنفس عن طريق الخطيئة، عن طريق مفهوم العقاب والخلود. لقد حارب العبادات السردابية، أي كل ما هو مسيحية كمونية، وقد كان نفي فكرة الخلود في ذلك الوقت بمثابة *الخلاص* الحقيقي، وكان بإمكان أبيقور أن ينتصر، إذ كل عقل جدير بالاحترام داخل الامبراطورية الرومانية كان أبيقوريا آنذاك[٦٨]: *عندما ظهر بولس*... بولس، حقْد الرعاع على روما وعلى «الدنيا» متجسدا لحما ودما، متجسدا عقلا؛ بولس، اليهودي، يهودي التيه *الأبدي* بامتياز... أما ما حققه فهو، كيف يمكن للمرء بواسطة حركة طائفية صغيرة منشقة عن اليهودية أن يضرم «حريقا كونيا»، وكيف يمكن للمرء بواسطة رمز «الرب على الصليب» أن يجمع كل ما هو وضيع، وكل متمرد في الخفاء ومجمل موروث النزوعات الفوضوية داخل الامبراطورية ليكوّن منها قوة هائلة. «الخلاص على أيدي اليهود»[٦٩]. المسيحية كصيغة لمنافسة كل أنواع العبادات السردابية من معتقدات

---

(٦٧) تيتوس لوكريتيوس كاروس، فيلسوف وشاعر لاتيني من القرن الأول ق م. مؤلف De rerum natura (عن طبيعة الأشياء) وهي قصيدة شعرية طويلة تقدم وصفا للعالم بحسب مبادئ ابيقور. ويعد هذا العمل خلاصة كاملة عن الأبيقورية الرومانية، وهو تيار قد ضم معظم كبار الشعراء والفلاسفة الرومانيين مثل هوراس وقاتوللا وأوفيد، وكانت منطقة تواجدهم هي مقاطعة كامبانيا من جنوب إيطاليا. (م)

(٦٨) أنظر الهامش السابق.

(٦٩) أنظر إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع / ٢٢: «لأن الخلاص هو من اليهود»

أوزيريس، والأم الكبرى وميثرا[٧٠]، -فيما هي تكوّن منها خلاصة جامعة: على أساس هذا المنظور تقوم عبقرية بولس. ولقد كانت له في هذا المجال غريزة على غاية من الوثوق جعلته يستطيع أن يضع على لسان «المنقذ» الذي هو صنيعته-وليس على لسانه فقط-، وباغتصاب شديد للحقيقة، كل التصورات التي كانت ديانات الشاندالا تستمد منها جاذبيتها الساحرة، ليكوّن منها شيئا يمكن أن يفهمه حتى راهب من رهبان ميثرا... تلك كانت رؤيته الدمشقية: لقد أدرك أنه بحاجة إلى الاعتقاد في الخلود من أجل تبخيس الدنيا، وأن فكرة الجحيم ستغدو سيدة على روما، وأن «الآخرة» تمكّن من *إفناء الحياة*... عدميّ ومسيحيّ، ما يجمع بينهما ليس مجرد تناغم في القافية فحسب...[٧١]

---

(٧٠) ميثرا الإلهة الرومانية التي تجسد ألوهة الشمس. وتعود جذورها الأصلية إلى الإله الفارسي المسمى بنفس الإسم من القرن الرابع عشر ق م. والذي هو بدوره مستنسخ عن الإله الهندي القديم ميترا (من الفيدا). (م)

(٧١) يبدو أن نيتشه قد استفاد هنا من قراءته لتولستوي كما يلاحظ كوللي ومونتيناري في تعليقاتهما، إذ أنه حرر مادة هذه الفقرة، وخاصة الجملتين الأخيرتين منها، مباشرة بعد قراءة تولستوي(ديانتي). ونجد في المجلد الثالث عشر من الأعمال الكاملة (شذرات التركة) [٢٨١]١١ صياغة أكثر تفصيلا: «من منطلق إدراك غريزي لحاجيات شعوب أخرى من غير اليهود قام بولس بترجمة الرموز الكبرى للحركة المسيحية البدئية إلى شيء مجسد ملموس وخال من الطابع الرمزي: لقد حول التناقض القائم على ثنائية الحياة *الحق* والحياة *الباطلة* إلى تناقض قائم على هذه الحياة الدنيا(الأرضية)، وتلك الآخرة السماوية التي يكون الموت جسر عبور إليها (-قد وضعها في مسيرة الحركة الزمنية في مقابلة بين الآن وما مضى). لهذا الغرض غرف من التراث الوثني واستخرج منه مفهوم *الخلود*

٥٩

كل عمل العصور القديمة قد ذهب سدى: لا أجد عبارة تستطيع أن تعبر عن مثل هذا الأمر الفظيع. واعتبارا أن كل ما أنجز آنذاك كان عملا تمهيديا، وأنه قد تم وضع الأسس فقط لعمل آلاف السنين المقبلة، وذلك بوعي ووثوق فولاذي، فإن جدوى ذلك العمل بكليته سيكون قد ذهب سدى!.. ما جدوى اليونانيين؟ وما جدوى الرومان؟ -كل الشروط الضرورية لثقافة عالمة، وكل المناهج العلمية كانت هناك، وقد تم وضع الأسس المتينة للفنّ الراقي والمتفرد للقراءة القويمة؛ شرط قيام تقليد ثقافي وتأسيس وحدة العلم. وكانت العلوم الطبيعية، متعاضدةً مع الرياضيات والميكانيكا، على الطريق المثلى: *الحس الواقعي*، الحس الأرقى والأثمن قد أسس مدارسه ووضع تقاليد

الشخصي، شيء مناقض لليهودية ومناقض للمسيحية. لكن في العالم كله، حيث توجد معتقدات سرية كان هناك إيمان بهذا النوع من الديمومة، وذلك من وجهة نظر الثواب والعقاب. هذا التعتيم الذي ألقي على الوثنية من خلال ظل قضاء الدين في الآخرة هو ما كان أبيقور، على سبيل المثال، يحاربه... وتتمثل اللمسة البارعة لبولس في تفخيمه للمعتقد الذي يؤكد أن المسيح قد شوهد بعد موته (يعني واقعة ***هلوسة جماعية***) والارتقاء بها إلى مرتبة المسألة المنطقية التيولوجية، كما لو أن البعث والخلود *مسألتين* جوهريتين وحجر التاج لنظام الخلاص اليسوعي (لذلك الغرض كان لا بد من قلب مجمل تعاليم وممارسة الطائفة القديمة رأسا على عقب). ذلك هو ***الجانب الساخر*** في المسألة، سخرية تراجيدية: لقد أعاد بولس وبأسلوب فاخر تثبيت ما كان يسوع قد ألغاه من خلال حياته وممارسته. وأخيرا، هاهي الكنيسة وقد تم ثبت بناؤها، تضع حتى *كيان الدولة* نفسه تحت طائلة شرائعها.» (م)

من قرون عديدة! هل هذا مفهوم؟ لقد أُعدّ كل ما هو *أساسي* من أجل الشروع في العمل: المناهج. وعلينا أن نكرر لآلاف المرات أنها الأمر الأساسي، وهي الأكثر صعوبة، وهي أيضا التي عليها أن تواجه لأطول مدة من الزمن ممانعات العادة والكسل. وكل ما استعدناه اليوم بجهد هائل في مغالبة النفس- ذلك أننا مازلنا جميعا نحمل في عروقنا الغرائز السيئة، الغرائز المسيحية، بطريقة أو بأخرى-: النظرة الحرة إلى الواقع، واليد الحذرة، والاناة والجدية في كل الأشياء الصغيرة، ومجمل *النزاهة* المعرفية- كلها كانت هناك! وذلك منذ أكثر من ألفي سنة! و*معها*، إضافة إلى ذلك الحس المرهف والذوق الرفيع! لا كترويض للعقول! ولا كـ«تربية» ألمانية بسلوكاتها الخشنة! بل جسدا، هيأة وغريزة: أي، في كلمة واحدة، كواقع،... كل ذلك قد ذهب سدى! وفي ما بين عشية وضحاها لا شيء هناك سوى مجرد ذكرى! - يونانيون! رومان! رفعة الغرائز؛ الذوق؛ البحث المنهجي؛ عبقرية التنظيم والإدارة؛ الإيمان؛ *إرادة* المستقبل الإنسائي؛ الإستجابة االإثباتية العظمى لكل الأشياء مرئيةً كامبراطورية رومانية مدركة بكل الحواس؛ الأسلوب الراقي لا مجرد فن فحسب، بل متحولا واقعا، حقيقة، *حياة*... وهذا كله لم يلحقه الدمار فجأة عن طريق كارثة طبيعية! ولا هو قد هوى تحت أقدام الجرمان وأجناس همجية فظة أخرى! إنما لحقه الهوان عن طريق مصاصات دماء أنيمية سرية متسترة وماكرة! لا مهزوما، -بل مسلوبا من دمائه فقط!..

رغبة الانتقام الخفية، والحسد الحقير وقد غدت سيّدة على

كل شيء! وكل ما هو بائس، وما هو قلق بنفسه، وما هو نهب لعذاب المشاعر السيئة، وباختصار، مجمل غيتو *الأنفس* يغدو دفعة واحدة في مقام السيادة. - ويكفي المرء أن يقرأ أيا من أولئك المحرضين المسيحيين، القديس أغسطينوس[٧٢] على سبيل المثال، كي يدرك وكي يشتمّ أي رهط كريه نجس من الناس قد غدا بموجب ذلك يحتل مرتبة الفوق. وسيكون المرء مخادعا لنفسه إذا ما افترض شيئا من نقص في القدرات الذهنية لهؤلاء الزعماء الأوائل للحركة المسيحية: كلا، لقد كانوا ذوي فطنة، فطنة حدّ القداسة، أولئك السادة من آباء الكنيسة! إنما ما ينقصهم هو شيء آخر. فالطبيعة لم تنصفهم؛ لقد نسيت أن تزودهم برصيد متواضع من غرائز محترمة، غرائز مستقيمة ونـقيـة... ولنقلها في ما بيننا، إنهم ليسوا حتى برجال... وعندما يبدي الإسلام احتقارا للمسيحية، فإن معه ألف حق في

(٧٢) أنظر رسالة نيتشه إلى فرانز أوفرباك في ٣١ مارس ١٨٨٥: «كنت أقرأ الآن، في فاصلة استراحة، اعترافات القديس أغسطينوس بأسف شديد لكونك لم تكن معي. يا لذلك البلاغي العجوز، لكم هو مزيَّف ومزوِّر! ولكم ضحكت وأنا أقرأه (على سرقات أيام شبابه مثلا؛ حكاية طلاّب في الحقيقة). وأيّ زيف بسيكولوجي! (عندما يتكلم مثلا عن موت صديقه المفضّل، الذي كان لصيق روحه حسب قوله: لقد قرر أن يختار مواصلة «العيش بعد تلك الحادثة حتى لا يموت صديقه كليّا.»- كذب كريه هو مثل هذا الكلام! وعديم القيمة فلسفيا. أفلاطونية سوقيّة، بما معناه أن نمط تفكير مبتكَر لروح أرستقراطية سامية تعاد صياغته هنا ليلائم طبائع عبيد. وبالمناسبة فإن هذا الكتاب يجعلك تنفذ بنظرك إلى أحشاء المسيحية: أجد نفسي وأنا أقرأ هذا الكتاب أقف مسلحا بفضول طبيب وفزيولوجي صارم.-

ذلك: فالإسلام يفترض فحول رجال شرطا لوجوده(٧٣)...

٦٠(٧٤)

لقد حرمتنا المسيحية من جني ثمار الحضارات العتيقة، وفي ما بعد حرمتنا مرة أخرى من جني ثمار الحضارة الإسلامية. لقد تم الازدراء بذلك العالم الثقافي الموريسكي البديع الذي عرفته أسبانيا–ولا أقول تحت أي نوع من الأقدام تم الدوس على تلك الثقافة–، والذي هو أقرب إلينا، ويخاطب حواسنا وذوقنا أكثر مما تفعل روما واليونان. لماذ؟ لأنها من منزلة نبيلة، ولأنها مشروطة في نشأتها بغرائز فحولية، ولأنها تقول نعم للحياة، مع زيادة في الرهافة النادرة لبدائع الحياة الموريسكية!(٧٥)... لقد

---

(٧٣) في دفتر W II 8,93 ينهي نيتشه هذه الجملة كالآتي: «فالإسلام يفترض فحول رجال –لا أشباه خصيان وجبناء... [ذلك الذي نمتدحه مع كل نبض لقلوبنا ونمجده].

(٧٤) عن الإسلام، كان نيتشه قد قرأ مؤلفات يوليوس فيلهاوزن. كما يرد ذكر كتاب أوغست ميللر «الإسلام في بلاد المشرق والمغرب» في إحدى دفاتر نيتشه التي تعود إلى تلك الفترة كما يرد في المجلد ١٣ من الأعمال الكاملة/ ١١ الفقرة رقم ١.

(٧٥) ترد الفقرة السابقة في دفاتر المسودات بصياغات متنوعة منها ما يرد تحت شفرة (W II 8,92): «إن الثقافة الموريسكية الرائعة بأسبانيا، اللتي تم تدميرها من طرف المسيحية وبمساعدة جنس الخصيان بامتياز وهم الجرمان، كانت تحمل بدورها تلك الروح الأرستقراطية المتأتية عن غرائز نبيلة وبذلك استفزت حنق الشاندالا المسيحية والكهنوتية وعدوانيتها القاتلة.»

وفي W II 8,91: «عندما نرى أن تلك الثقافة [المكتملة] الموريسكية

حارب الصليبيون في ما بعد شيئا كان أجدر بهم لو أنهم مرّغوا أنوفهم في التراب أمامه؛-حضارة كان من المفترض أن يشعر حتى قرننا التاسع عشر بنفسه فقيرا جدا و«متأخرا» للغاية مقارنة بها.- وفي الحقيقة كان أولئك الصليبيين يطمعون في الحصول على غنائم: فالمشرق كان غنيا. ولنكن صادقين! الحروب الصليبية أكبر نوع من القرصنة، ولا شيء غير ذلك! لقد وجد النبلاء الألمان -نبالة فيكينغ في الأصل- في تلك الحروب الشروط الملائمة لانتعاشهم. وكانت الكنيسة تعلم جيدا من أين يؤخذ النبلاء الألمان... النبلاء الألمان، الحرس «السويسري» الدائم للكنيسة، ودوما في خدمة كل الغرائز السيئة للكنيسة- لكن بأجر جيد... أن تكون الكنيسة قد استعملت سيوفا ألمانية ودما ألمانيا وشجاعة الألمان لخوض حربها العدوانية القاتلة ضد أرقى وأنبل حضارة على وجه الأرض! فذلك ما يدعو إلى طرح عدد من الأسئلة المؤلمة.(٧٦) النبالة الألمانية تبدو غائبة غيابا كليا من تاريخ الحضارات الراقية؛ وإنه بالإمكان أن نحزر أسباب

[الإسبانية] البديعة بأسبانيا قد تم الدوس عليها بالأقدام من قبل الخصيان الجرمان! -تلك الثقافة التي تصدر عن أنبل الغرائز الأرستقراطية، تلك التي جاءت لتقول مجددا نعم للحياة، ولكل البدائع النادرة والرفيعة في الحياة!

(٧٦) صياغة مختلفة قليلا للجملة السابقة نجدها W II 8,92 : «وكون الكنيسة قد اعتمدت بالذات على نبلاء الجرمان لخوض حربها ضد «أنبل قيم» وجدت على وجه الأرض لصالح قيم الشاندالا، يمثل بالنسبة لألماني إحدى الأسئلة الأكثر مرارة --- الجرمان، جنس الخدم المسخّرين لكل الغرائز السيئة للكنيسة.»

ذلك... المسيحية والكحول؛ الأداتان *الكبريان* للفساد... وفي الحقيقة لاداعي حتى إلى الاختيار عندما يتعلق الأمر بالمسيحية و الإسلام، تماما كما لا يُحتاج إلى اختيار بين: عربي أم يهودي؟ فالجواب معطى مسبقا، وليس لأحد من خيار بعدها. إما أن يكون المرء شاندالا، أو أنه *ليس كذلك*... «حرب بلا هوادة ضد روما[*]، وصداقة مع الإسلام»: ذاك هو ما أحس به، وما فعله ذلك العقل الحر العظيم والعبقرية المتميزة من بين القياصرة الألمان، فريدرش الثاني![٧٧] ماذا؟ هل ينبغي على الألماني أن يكون أولا عبقريا، أن يكون أولا مفكرا حرا كيما يستطيع أن يحس بطريقة لائقة؟ إنني لا أستطيع أن أفهم كيف كان من الممكن لألماني أن يحس على نحو مسيحي...

٦١

عند هذا الموقع لابد أن أثير ذكرى مؤلمة أخرى أكثر إحراجا بالنسبة للألمان. لقد حرم الألمان أوروبا من آخر حصيلة حضارية عظيمة مما كان بإمكانها أن تجنيه: حرموها من ثقافة

(*) المقصود بروما هنا هو روما البابوية وليس الإمبراطورية الرومانية التي يعتبرها نيتشه أرقى نموذج حضاري من بين كل ما توصلت إليه الإنسانية.

(٧٧) نقرأ في W II 8,91: «وفي الحقيقة سيكون ذلك خطيئة في حق العقل أن يعن لنا حتى مجرد طرح السؤال عن أيهما أرفع قيمة، المسيحية أم الإسلام؟ فنحن أمام قيم على طرفي نقيض. وليس بوسع المرء، إذا ما كان يحمل غرائز نبيلة في داخله، إلا أن يختار ما اختاره ابن سلالة هوهنشتاوفن، فريدريش الثاني: الحرب ضد روما، وسلام وصداقة مع الإسلام!...

النهضة. هل يمكننا أن نفهم، وهل نريد أن نفهم أي شيء كانت النهضة؟ *قلب القيم* المسيحية، السعي بكل الوسائل، وبكل الغرائز، وبكل ما أوتي العصر من عبقرية، لجعل القيم المضادة والقيم النبيلة تحقق انتصارها... لم تكن هناك إلى حد ذلك الحين سوى *تلك* الحرب الكبرى، ولم يكن هناك من سؤال بمثل ذلك الطابع المصيري سوى السؤال الذي طرحته النهضة، -وسؤالي هو نفس سؤالها-. كما لم يوجد أبدا هجوم شامل موجّه إلى قلب الخصم بصفة مباشرة صريحة صارمة وجوهرية يمكن أن يضاهي ذلك الذي قامت به النهضة! هجوم يستهدف الموقع الحساس ومركز سلطة المسيحية، وجعل القيم النبيلة تتربع على العرش هناك بالذات، أعني ترسيخها داخل الغرائز والرغبات والحاجيات العميقة لمن يجلس على ذلك العرش... أرى أمامي *إمكانية* سحر وثراء تنوع خارقيْن؛ ويتراءى لي أنها تشع باختلاجات الجمال المرهف، وأن فنا رفيعا يعتمل في داخلها، قدسيّا، على نحو شيط*اني* القدسيّة، مما يجعلنا نبحث عبثا عبر قرون عديدة من الزمن عن نظير لمثل هذه الإمكانية؛ أرى لعبة على غاية من الحسّية، وعلى غاية من المفارقة البديعة، مما يمكن أن يمنح كل آلهة الأولمب فرصة للانخراط في ضحك قدسي أبدي: *قيصر بورجيا*(٧٨) *على كرسي البابوية*... هل تفهمون قصدي؟ حسنًا، كان ذلك سيعني الانتصار الذي أطمح

---

(٧٨) أنظر الهامش رقم ٥٣.

إليه اليوم لوحدي: إلغاء المسيحية.[٧٩] لكن، ما الذي حصل؟ راهب ألماني يأتي إلى روما: مارتن لوثر. ذلك الراهب بكل ما يحمل في داخله من غرائز الانتقام المميزة لكاهن فاشل قد ثارت ثائرته على النهضة في روما... وعوضا عن أن يفهم بعميق الامتنان ذلك الحدث الهائل الذي حصل في روما آنذاك، أي الانتصار على المسيحية في مركز *سلطتها*، فإنه لم ير في تلك اللعبة الكبرى سوى ما يستمده منها من غذاء لحقده. رجل الدين لا يفكّر إلا في نفسه. لقد رأى لوثر في ذلك *فساد* المؤسسة البابوية، بينما عكس ذلك هو ما كان بإمكان المرء أن يلمسه بيده: فالفساد القديم والخطيئة الأصلية لم تعد هي التي تتربع

(٧٩) أنظر جاكوب بوركهارت: «ثقافة النهضة في إيطاليا»، لايبزخ -١٨٦٩ (مكتبة نيتشه: BN, 91-95)، وخاصة هذا المقطع: «وفي الواقع ما من شك هناك في أن قيصر بورجيا، سواء تم انتخابه أم لا بعد وقاة الإسكندر (أنظر الهامش رقم ٥٣)، كان يطمح إلى الاستيلاء على الدولة الكنسية بكل الوسائل، وأنه، وبعد كل ما اقترفه، لن يكون له أن يواصل الحكم لمدة طويلة بصفة بابا.. وإذا ماكان هناك من أحد بإمكانه أن يعلمن الدولة الكنسية، فإنه لن يكون سوى هو: سيكون مرغما على ذلك كيما يتسنى له أن يواصل بسط سيادته. وإذا لم تخدعنا الأشياء، فإن ذلك هو ما يفسر التعاطف السريّ الذي كان ماكيافيللي يكنه لذلك المجرم الكبير... وماذا كان قيصر بورجيا سيفعل لو لم يكن طريح الفراش هو أيضا في الوقت الذي توفي فيه والده؟ وأي مجمع بابوي (مجمع الكرادلة -المترجم-) كان سيكون هناك لو أنه كتب له، وبكل الوسائل التي كانت بحوزته، أن يُنتخب بابا من طرف مجمع كرادلة مضيّق عمدا لذلك الغرض بواسطة مفعول السمّ، وبخاصة في ذلك الحين الذي لم يكن هناك من جيش فرنسي في المناطق القريبة؟ إن الخيال يجد نفسه ضمن هذه الفرضية أمام هوة سحيقة...»

على كرسي البابا، بل الحياة! بل هو انتصار الحياة! هي الاستجابة الإثباتية (نعم) لكل الأشياء السامية والجميلة والجريئة! . . . وهاهو لوثر يحيي *الكنيسة* من جديد: تلقّفها وانتشلها. . . وإذا النهضة حدث غير ذي أهمية، عمل كبير *دون جدوى!* -يا لهؤلاء الألمان، كم كلّفونا من الخسائر! دون جدوى، - هكذا كان عمل الألمان دوما. الإصلاح، لا يبنيتز، كانط والفلسفة الألمانية المزعومة، حروب التحرّر، الرايش؛ -في كل مرة عمل دون جدوى، من أجل شيء موجود سلفا، من أجل شيء تلف *وليس له* من معوّض. . . أشهد أنهم أعدائي *الشخصيين*، أولئك الألمان! أحتقر فيهم كل ضرب من قذارة الأفكار والقيم، ومن *الجبن* أمام كل إجابة صريحة بنعم ولا. منذ ما يقارب الألف سنة وهم يدخلون البلبلة والاضطراب على كل ما لامسته أيديهم، وهم يحملون وزر كل أنصاف الأفكار وشظايا الحقائق المنقوصة التي تعاني منها أوروبا. وهم يتحملون أيضا مسؤولية الصنف الأقل نقاوة من المسيحية من بين كل ما وجد إلى حد الآن، ذلك النوع الذي يستعصي على كل دواء، والذي يمتنع بشدة عن التفنيد: البروتستانتية. . . وإذا ما قدّر للإنسانية أن تقف عاجزة عن التخلص من المسيحية، فسيكون *الألمان* هم الذين يتحملون مسؤولية ذلك. . .

٦٢

أجدني عند هذا الحد وقد أشرفت على خاتمة كلامي، وأود أن أصرح بحكمي. إنني *أدين* الألمان، وأرفع ضد الكنيسة

المسيحية أشنع تهمة على الإطلاق، مما يمكن لمتّهِم (بكسر) أن يرفعه من تهم. إنها تمثل في نظري أكبر ما يمكن أن يُتصور من أنواع الفساد، وتحدوها إرادة أرذل أنواع الفساد الممكن على الإطلاق. والكنيسة المسيحية لم تدع شيئا يفلت من الفساد الذي أحاطت به كل شيء؛ لقد جعلت من كل قيمة لاقيمة، ومن كل نزاهة شيْنا. وليُتجرّأنّ عليّ بعد كل هذا بذكر بركات أعمالها «الإنسانية»! أن تقوم بما *يزيل* حالة بؤس فذلك ما يتعارض مع أعمق مصالحها؛ فهي تحيا من حالات البؤس، وعلى الدوام *كانت تختلق* حالات بؤس تضمن بها لنفسها ديمومة البقاء... جرثومة الخطيئة على سبيل المثال: بذلك البؤس أثْرت الكنيسة الإنسانية! أما «تساوي الأنفس أمام الله»، ذلك الزيف، وتلك التعلة المبررة لضغائن كل حطيط القيمة والمنزلة، ذلك المفهوم ذو الطابع الانفجاري الذي تحوّل بالنهاية إلى ثورة وفكرة حداثية، ومبدأ انحطاط لمجمل النظام الاجتماعي، إنما هو عبوة *ديناميت* مسيحية... الأعمال «الإنسانية» المباركة للمسيحية! جعل الإنسانية تتمخّض عن إنتاج نقيضها من صلبها، وعن فن إذلال ذاتي، وإرادة الكذب بأي ثمن، وتثبيط للهمم، واحتقار لكل أنواع الغرائز الجيدة والنزيهة! -تلك هي بركات المسيحية في نظري!

الطفيلية كممارسة وحيدة للكنيسة؛ متكالبةً بتعطشها للدماء وبمُثُلها «المقدسة» على كل دم، وعلى كل ضرب من المحبة، وكل أمل في الحياة، تمتصه وتزدرده. الآخرة كإرادة نفي لكل واقع، والصليب كعلامة عن المؤامرة الأكثر سردابية وسرية من

بين كل ما عرفت البشرية من مؤامرات ضد العافية والجمال وسلامة التكوين والشجاعة والعقل وكرم النفس؛ *ضد الحياة نفسها*...

هذه الدعوى ضد المسيحية سأظل أخطها على كل حائط، وفي كل مكان يوجد به حائط، ولديّ من الحروف ما يجعل العميان أيضا مبصرين... أسمّي المسيحية باللعنة الكبرى، والفساد الداخلي الأكبر، وأكبر غريزة انتقام ليس هناك من وسيلة سامة وسرية وسردابية وحقيرة بما فيه الكفاية بالنسبة لما تتطلبه أغراضها، - أسميها وصمة العار الخالدة على صفحة الإنسانية.

وعندما أفكر بأن الناس يقيسون الزمن ويؤرخون انطلاقا من لحظة *الشؤم* التي بدأت معها الكارثة، -انطلاقا من *اليوم الأول* لتاريخ المسيحية! -لم لا نؤرخ *بالأحرى انطلاقا* من يومها *الأخير*؟ - *ابتداء من اليوم*؟ -قلبُ كل القيم!...

قانون ضد المسيحية

تمت صياغته يوم الخلاص، في اليوم الأول من السنة الأولى للتأريخ الجديد
(يوم ٣٠ سبتمبر ١٨٨٨ بحسب الرزنامة المزيفة)

حرب بلا هوادة على الرذيلة: الرذيلة هي المسيحية

البند الأول. رذيلة هو كل نوع من مناقضة الطبيعة. والنوع البشري الأكثر رذيلة هو القس: إنه يعلّم ما يناقض الطبيعة. ليس هناك من حجة لمواجهة القس؛ هناك السجن.

البند الثاني. كل اشتراك في قُدّاس اعتداء على الأخلاق العمومية الحميدة. يجب التعامل بأكثر شدة مع البروتستانت مما يُتعامل مع الكاثوليك، وبشدة أكبر مع البروتستانت الليبراليين من أولئك المتمسكين باحترام صارم للنواميس. يزداد الطابع الإجرامي حدة لدى المسيحي كلما اقترب أكثر من العلم. وبالتالي يكون أكثرُ المجرمين إجراما هو *الفيلسوف*.

البند الثالث. يجب تدمير المدن اللعينة التي حضنت المسيحية فيها بيضة حيّة المُلْكة، وتسويتها بالأرض، وأن تغدو

بمنزلة المواقع *الملعونة* لدى كل أجيال العصور اللاحقة. وينبغي أن نجعل منها أمكنةً لتربية الأفاعي السامة.

البند الرابع. الكرازة بالعفة تحريض عمومي على مناقضة الطبيعة. كل احتقار للحياة الجنسية، وكل تنجيس لها عن طريق مفهوم الـ«نجاسة» هي الخطيئة الحقيقية في حق الروح القدس للحياة.

البند الخامس. الأكل على نفس المائدة مع قس موجب للإقصاء: فالمرء يطرد نفسه بذلك من مجتمع الشرفاء. القس هو عنصر الشاندالا *بالنسبة لنا*،- ينبغي أن يتم نبذه، وتجويعه والحكم عليه بالتيه في كل صحراء.

البند السادس. ينبغي أن نسمي التاريخ «المقدس» بالإسم الذي يستحقه، أي كتاريخ ملعون، وأن نستعمل عبارات «إله»، و«مسيح»، و«منقذ»، و«قديس» كشتائم وتسميات لمجرمين.

البند السابع. البقية تُستنتج مما سبق.

نقيض المسيح

هذا الكتاب

هذا الكتاب لقلة من الناس فقط. وربما لم يولد أحد من هؤلاء القلة بعد. قد يكونوا أيضاً من أولئك الذين استطاعوا أن يفهموا زرادشتي؛ وكيف لي أن أخلط بيني وبين أولئك الذين تُهيّأ لهم منذ الآن آذان صاغية؟ بعد غد فقط هو زمني. فمن الناس من لا يولد إلا بعد الممات.

